إنعَام كجَه جي

الحفيدة الأميركية

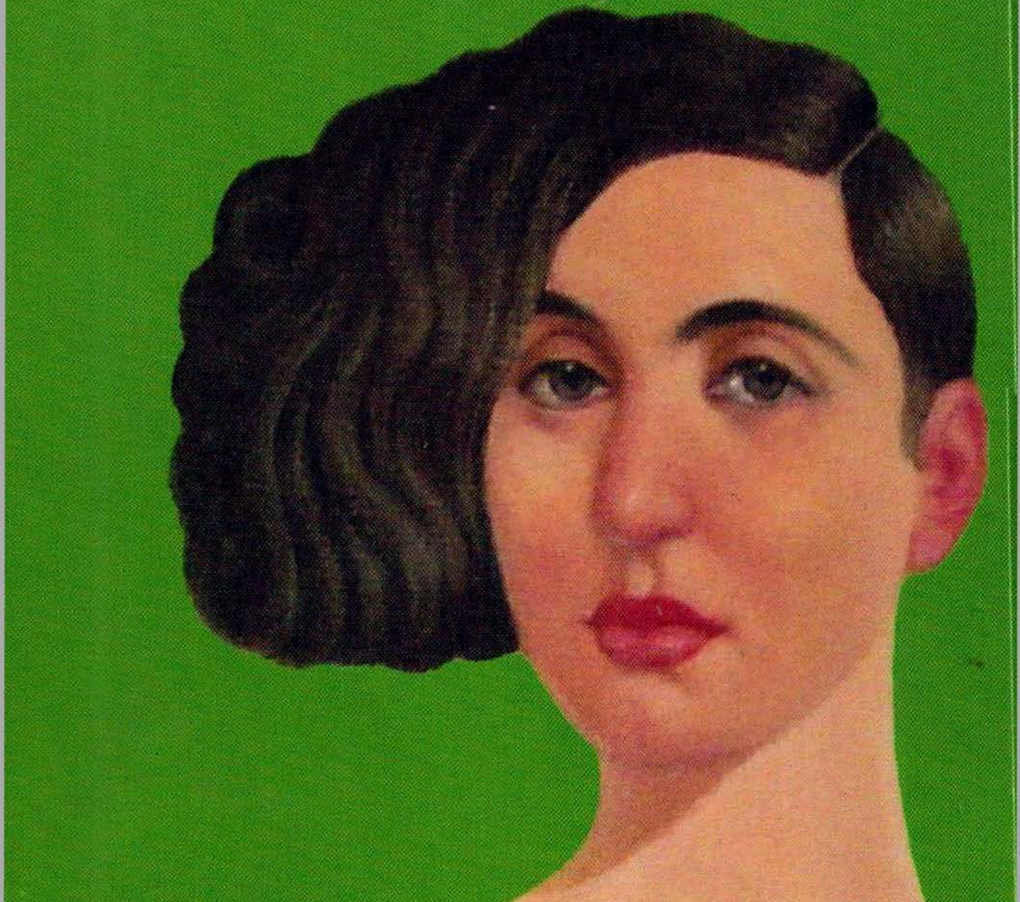

الحفيدة الأميركية

إنعام كجه جي

الحفيدة الأميركية

رواية

هذه الرواية واحدة من ست روايات اختيرت

على اللائحة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) ٢٠٠٩

شتاء ٢٠٠٩

الطبعة الثانية

جميع الحقوق محفوظة

صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت - لبنان

هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٣٦٠٤ - ٧٣٩٨٥٠

aljadeed@cyberia.net.lb

إلى طلال

"إياكم وخضراء الدمن"

حديث نبويّ غير متفق عليه

I

لو كان الشجن رجلاً لما قتلته بل لدعوت له بطول العمر.

كيف تمكّن هذا الإحساس المخاتل أن يصقلني ويشذّب نزقي الذي كان طبعاً فيّ؟

كيف صرت أرى الدنيا ومن فيها بلون آخر لا خبرة لي به، أجهل درجاته وتتلعثم في تفسيره كلماتي، بل تتعثّر في الإقرار به عيناي؟

هل كنت مصابة بعمى الألوان؟ أم إنني كنت سليمة، ستة على ستة، وإن ما أراه الآن، على شاشة رؤيتي، هو اللون الغلط؟

حتى ضحكتي تغيَّرت. لم أعد أُقهقه من قلبي كالسابق، كاشفة، بلا خجل، عن أسناني السفلية المعوجّة التي وصفها كالفن بأنها تشبه مقهىً شعبياً تشاجر روّاده بالكراسي. كان كالفن، يومذاك، يقصد أن يغازلني. لكن الغزل ما عاد، اليوم، يناسبني. من يغازل امرأة تحمل مقبرة بين الضلوع؟

بائسة أنا. طاولة زينة مقلوبة، مشروخة المرآة. أضحك من قشرة القلب بإيجاز وبلا كثير حبور. ضحكة بلا دسم، «دايت»، مثل مشروب غازيّ بلا طعم. هل أضحك بالفعل أم أُجاهد لكي تطلع منّي ابتسامة وجيزة مكتوبة بـ«الشورت هاند»؟ كأنني أتقشف في المباهج المفترضة والمسرّات

الهاربة. أتستر على جوفي لئلا يفور ما فيه وينضح ويشي بالهزّة التي حدثت لي منذ أن عدت من بغداد خرقةً معصورةً من خرق مسح البلاط.

خرقة كاشي. هكذا عدت.

وتخليت عن عادات كثيرة لازمتني منذ طفولتي. ولم أعد أنظر إلى ما يجري حولي مثل سلسلة متصلة من الأفلام الخام. كل فصل أعيشه هو فيلم يغريني بالبحث عن العنوان المناسب له. وأقوى أفلامي يمرّ أمام ناظريّ ولا أفلح في إيجاد عنوان يليق به.

أراني على الشاشة قدّيسة مخذولة تحمل حاجياتها في كيس خاكي على الظهر، ترتدي خوذة صلبة وبسطالاً مترباً وتسير وراء جنود مهزومين يرفعون شارات النصر. أين رأيت مثل هذا المشهد من قبل؟ أليس هنا في العراق، أيضاً، في زمن ماض وحياة أُخرى؟ هل تتناسل الجيوش المهزومة على خصب هذه الأرض وبين هذين الرافدين؟

أُقرُّ بأنني عدت مقهورة، محمّلةً بحصى الشجن وبحبتين من النومي الحلو، اشتهيتهما لأُمّي التي يبدو أنها اكتشفت نعمة الخذلان من قبلي، وبالتحديد منذ ذلك اليوم الذي سيقت فيه إلى الاحتفال الكبير في ديترويت لكي تؤدّي قَسَم الولاء لأميركا وتنال بركة جنسيّتها.

دمعت عيناها وأنا أمدُّ يدي لها بالثمرتين الصفراوين اللتين قطفتهما من حديقة البيت الكبير الذي أمضت شبابها فيه. أخذت النوميّتين بكلتا يديها وتنشّقتهما بعمق وكأنها تشمُّ مسبحة أبيها وحليب أُمها وعمرها الماضي.

حياة مغدورة تكوّرت في ليمونتين.

لكني أُحبُّ شجني هذا وأستعذب نعومة حصاه وأنا أخوض بروحي العارية في ساقيته، ولا أرغب أن أطرح عبئه عن كاهلي. شجني الجميل الذي يشعرني بأنني لم أعد امرأة أميركية عادية بل إنسانة من منبع آخر، بعيد وموغل في القدم، تطوي اليد على جمرة حكاية تندر مثيلاتها.

II

« ديل... ديل... ديلاني

بعشيقة ويا حزاني

راح باباع الضيعة

إشترى كشمش وقضامي

أكلتها الدامي

طلع زوجها حرامي...»

تهزُّني جدَّتي رحمة جيئةً وذهاباً بعد أن تجلسني بمواجهتها في حضنها الدافئ. صدري الهش الصغير يقابل نهديها المترعين بالعافية، يطفحان من صدريتها القطنية البيضاء التي تفوّرها بالماء المغلي والصابون المبشور كلما اصفرّت من العرق.

أنظر مسحورة إلى وجهها الأبيض المشرّب بالحمرة وأتشبث بساعديها وساقاي تتدليان من الجانبين. لا تلامسان التخت الذي تقعد عليه ملمومة الركبتين بأناقة، مثلما تعلمت من مجلّة «حوّاء»... جدّتي المتعلّمة التي كانت تقرأ وتكتب وتطالع الصحف، بدت أُعجوبة بين نساء جيلها.

تميل عليَّ بصدرها إلى الأمام حتى تكاد الدنيا تدور في عينيَّ، ثم

تنتشلني إلى الوراء، وهي تردد محفوظاتها القديمة التي تحمل رسالة انحفرت في ذهني الطري. محفوظات متوارثة من أيام الموصل والبيت الحجري القديم الواقع على جرف النهر. بيت جرجس الساعور، جدي الأكبر الذي أخذ لقبه من عنايته بكنيسة «الطاهرة» وبصور القديسين فيها وبشمعداناتها التي يجب تنظيفها، كل يوم سبت، من الشمع المتجمد على أعمدتها، وتلميعها بفلقة ليمون.

أخذوني يوماً إلى هناك وأنا صغيرة. وكنّا في عطلة عيد الفصح، أوائل نيسان، حين تشتعل سهول المدينة بصفرة أزهار البابونج. سحرني كلّ ذلك الفضاء الأصفر المترامي ودوّختني رائحة الطبيعة. كان منظر شقائق النعمان مدهشاً في شقوق الصخور، حمراء مثل خدود بنات خالي حين يخرجن من الحمّام والماء ينقط من شعورهن الطويلة. كيف كان لي ألا أُحبّ الموصل، وكلٌ من فيها يتحدث بلهجة جدَّتي؟

أحببت أقاربي الموصليين ذوي الشعور اللامعة الممشطة إلى الخلف، والوجوه البيض المشرّبة بالحمرة. كانوا يزوروننا في عيد الميلاد أو عندما ينزلون إلى بغداد لمراجعة دائرة حكومية أو ليقصدوا طبيباً معروفاً. يجلسون مطرقين مهمومين على مقدمة الكراسي الخشبية الشائعة آنذاك من نوع «ثونيه». إنهم دائماً في حالة تأهب للنهوض لاستقبال صينية شاي أو الترحيب بقادم، أو التخلي عن المقعد لكبير، يسندون كروشهم الصغيرة بقبضاتهم اليمنى ويكرّون حبات مسابحهم باليسرى. وإذا حدث وتكلموا فقل إن خزانة المطبخ قد هوت وانفلق بابها وتدحرجت منها القدور والأغطية الفافون. عند الكلام، تخرج من أفواه أقاربي كلمات تتدافع وتطقطق بحروف القاف والغين وبالألف الممدودة في النهايات مثل

قفلات المواويل. «عمّاه... خالاه...» وكأنهم خارجون للتو من مسلسل تاريخي بالفصحى عن مروءات سيف الدولة. لكنني، وإن أحببتهم، فإنني لم أشعر بكثير من الأُلفة في ذلك البيت الكبير الرطب ذي الأدراج الصاعدة إلى أكثر من سطح، والنازلة إلى عدة سراديب. كانت درجات السلّم أطول من ساقيَّ الصغيرتين الرفيعتين، وكوّة النور الوحيدة العالية في آخره لا تبدد كل ظلمته.

تذكرت الترنيمة ونحن في الرتل الذي قطع بنا الطريق الممتدة من الموصل إلى القرى المحيطة بها.مررنا ببعشيقة فوقفت الفتيات أمام البيوت ينظرن إلينا وهن يعدّلنَ أوشحتهن البيض فوق رؤوسهن. تمنيت لو أعمل عنهنّ فيلماً أُسمّيه «حمائم ومناديل».

لم يكن على وجوههن ما يكشف عن نوع مشاعرهن.لكن أياً منهن لم تكن تبتسم أو تلوّح بمنديلها، أو تتطابق مع ما كان في خيالي من مشاهد لأفلام أميركية عن الحرب العالمية الثانية، وعن فتيات باريس ونابولي وهنّ يلوّحن لأرتال الجيش الأميركي، ويقفزن فوق ظهور المدرعات لكي يفزن بقبلة من فم جندي لوّحت الشمس وجهه الوسيم.

قلت للأولاد إن بعشيقة هي على الأرجح تسمية قديمة محوّرة عن بيت العاشقة. أما باحزاني، القرية المجاورة لها فتعني بيت الحزينة. صفّقوا لهذه المعلومات، لكنهم سرعان ما عادوا إلى توجّسهم عندما مررنا برجال ذوي شوارب كثيفة ولباس أبيض، يعتمرون كوفيّات ناصعة، ظهروا من وراء أشجار السرو وراحوا يرمقون رتلنا بنظرات من نار.

وددت لو أقفز من العربة المدرعة وأصيح «الله يساعدهم»!

أن أتبادل وإياهم أيّ حديث، كأن أسألهم عن موسم الحنطة أو عن

III

«سبعة وتسعون ألف دولار في السنة. ماكل شارب نايم». تلك كانت هي العبارة التي تخلب العقول وتبلبل الأفكار، وتنتشر بين عراقيّي ديترويت وباقي عربها فتستعر شموس تحت الأغطية الثقيلة، ويتمايل سعف نخيل فوق طبقة الثلج التي كانت لا تزال تغطي حدائق البيوت.

جاءتني ساهرة وألقت بالعبارة في حضني، مثل جمرة مشتعلة، وغادرت على عجل قبل أن تشرب قهوتها. وسمعت صرير عجلات سيارتها التويوتا القديمة وهي تسرع لتزفّ «البشراوية» إلى باقي الأقارب والصديقات.

كلام لا يجوز التفوه به في الهواتف النقالة. «ديلي لوتو» لا يفوز فيه سوى أصحاب الحظوظ السعيدة من الأميركان الذين يتكلمون العربية، مثلي ومثل ساهرة التي قالت لي بكل بساطة، عندما سألتها كيف تسافر وتترك ولديها المراهقين:

- الولدان؟ لم يغمض لهما جفن طوال الليل من الفرحة، وبقيا إلى جانبي يتوسلان أن أُسرع بتسجيل اسمي قبل أن تطير الفرصة إلى غيرنا.

سبعة وتسعون ألف دولار تكفي لأن يدفع الأبناء آباءهم وأُمهاتهم إلى ساحات الحرب، يضاف إليها خمسة وثلاثون في المئة مخصصات خطورة، ونسبة مماثلة لأتعاب المهنة ومصاعبها، وشوية خردة من هنا

وشوية من هناك، ويصل المبلغ إلى مئة وستة وثمانين ألف دولار في السنة. رقم يكفي لوداع حي «سفن مايل» البائس إلى غيرما رجعة، ويكفي لدفع مقدم بيت فسيح وسط حدائق «ساوثفيلد» واقتناء سيارة جديدة بـ «الكاغد». كما يكفي لإرسال أخي يزن، الذي صار اسمه جايزن، إلى مصحة لعلاج الإدمان وإدخاله، بعد ذلك، إلى الجامعة.

سنة واحدة أو سنتين. بعدها تعتدل الأُمور. وأغسل صدر أُمّي من سخام كل السجائر الرخيصة التي دخَّنتها بإفراط وهي تنتحب، كل ليلة، ولا يحجب الحاجز الخشبيّ بين غرفتينا نحيبها. كانت تبكي، أحياناً، بدون صوت، مثل تلفزيون محروق اللمبة. وكنت ألمح بلل خدّيها وأعرف أن النساء لا يبكين من الهجران فحسب بل من شحّة ما في اليد. النقود سعادة أُخرى. وأنا سأجلب السعادة لوالدتي... لن أدع الفرصة تفوت.

الأيام التي تلت زيارة ساهرة، راحت الشركات الخاصة المتعاقدة مع وزارة الدفاع تفرّخ في مدن المهاجرين وعلى شبكات الأنترنت وإعلانات التلفزيونات المحلية وأحاديث الناس، بعد قداس الأحد في كنائس ديترويت وشيكاغو وحتى في حسينيات ديلبورن.

بعصا ساحر امتدت بسطات سوق لا أول لها ولا آخر من المزايدات والنصائح والدسائس ولعب الورقات السبع. أُناس يشجّعون ويصفّقون ويزيّنون التجربة، وأُناس يديرون الوجوه ويبصقون ويحذّرون من خيانة الأرض التي شربنا من دجلتها وفراتها، حتى ولو لصالح أرضنا الجديدة التي تسقينا الكوكا كولا صباح مساء.

والحرب على وشك أن تبدأ، ولا حديث سواها؛ نسمع قرع طبولها في عناوين الصحف وخطب أعضاء الكونغرس، وفي الأعلام التي انغرزت

فوق مداخل البيوت، وفي الطائرات التي تعبر الأجواء والسفن التي تستنفر بحّارتها لتذهب بهم إلى المياه الدافئة.

وفي صباح من صباحاتي المتشابهة، لم أبدأ جولتي الميكانيكيّة لترتيب البيت، بل جلست وأدرت رقم واحدة من الشركات التي تطلب مترجمين يتحدثون العربية، وبعثت بالبيانات اللازمة عني. لم أكن خائفة من الحرب، من موت أو إعاقة، فلا وقت للتفكير في الأُمور الحقيقية ونحن في ذلك الفوران المهرجانيّ الصاخب. كنت أقول، مثلما تقول «فوكس نيوز»، إنني ذاهبة في مهمة وطنية. جنديّة أتقدم لمساعدة حكومتي وشعبي وجيشي، جيشنا الأميركي الذي سيعمل على إسقاط صدام وتحرير شعب ذاق المرّ.

أوقفت سيارتي في الساحة الفسيحة المكشوفة لمخزن «وولمارت» ولم أترجل منها. بقيت ساكنة أرقب الثلج النادف على الزجاج الأماميّ. لم أعد في حاجة لأن أشتري قميصاً ولا حذاء جديداً. ثيابي ستكون غير هذا. أُسند ذراعيّ على المقود وأرى جنديّة تسير في الساحة، تحت الثلج المتساقط، ترتدي بدلة قتاليّة وتتقدّم في اتجاه الشرف الذي ينتظرها على مسافة حلم أو حلمين، هناك في البلد الذي كانت فيه ولادتي.

مساكين أهل العراق، لن يصدّقوا أعينهم حين ستتفتّح على الحرية.

حتى الشيخ العجوز منهم سيعود ولداً صغيراً وهو يرشف حليب الديمقراطية، ويتذوّق طعم الحياة كما عشتها أنا هنا.

أفكار كانت تشعّ في رأسي وتضيء سيارتي، وتزداد التماعاً حين تقترن بالمئة وستة وثمانين ألف دولار، ثمن لغتي النادرة، بل ثمن دمي.

كيف تكون المشاعر الوطنية؟ خزعبلات لم تكن تعني لي الكثير، لا في طفولتي العراقية ولا في شبابي الأميركي. لكن ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر أصابني بمسّ كهربائي سرت حرارته في أجسام كل من أعرف من أصدقاء وجيران. تحوّلنا إلى كائنات تهتزّ وتنتفض وتطلق أصوات استنكار وهلع. تشبك أيديها على رؤوسها أو تضعها على أفواهها. «أُوه ماي غاد... أُوه ماي غاد!». نرددها بدون توقف وكأننا نسينا اللغة وبقيت لدينا هذه الكلمات الثلاث فحسب.

صحوت في ذلك الصباح متأخرة، كالعادة، على سعال أمي التي تنام في الحجرة المجاورة. وأنا مثل الروبوت، مبرمجة على حركات صباحية لا تتغيّر، توجهت إلى المطبخ لوضع الماء في غلاية القهوة الكهربائية، ثم إلى غرفة المعيشة لترتيب الصحف والوسائد المقلوبة، ثم إلى غرفة يزن لإيقاظه، ثم العودة إلى المطبخ لتحضير وجبة يأخذها معه إلى المدرسة، وأخيراً احتضان كوب قهوتي بكلتا كفيّ، والجلوس أمام التلفزيون لسماع نشرة الأخبار. أفعال أقوم بها وأنا نصف نائمة. تتحرك خلالها يداي ولا أحتاج فيها إلى تشغيل عقلي. لكنني في ذلك اليوم مضيت مباشرة من سريري إلى التلفزيون وتناولت الريموت وأنا واقفة، لا أدري أي دافع صرفني عن الدورة التقليدية في البيت، أو لعل أحداً عبث ببرنامج الروبوت في الليلة السابقة.

رأيت طائرة تصطدم ببرج. وكان هناك، على الشاشة برج مجاور يحترق.

جمدت في وقفتي ولم أجلس. كنت أعرف هذين المبنيين. أعرف نيويورك. كل أميركيّ يعرف نيويورك حتى ولو لم يرها. لقد زرتها ووقفت

أمام برجيها وأكلت لقمة على الشرفة المؤدية إلى أحدهما. نعم، كان هناك إيرانيّ يبيع الشاورما على عربة متنقلة تحت مبنى مركز التجارة الدولي.

بقيت جامدة لا أرمش ولا أتنفس ولا أستوعب. ولم تتحرك سوى الإصبع الضاغطة على الريموت. رفعت الصوت لأعرف هل هو فيلم أو مشهد يجري تصويره بالحيل السينمائية، لكن عينيّ وقعتا فوراً على عبارة «بريكنغ نيوز» في أسفل الشاشة.

رأيت أميركا تحترق أمامي وشممت رائحة الشواط. إسم الفيلم لابد أن يكون «برج الجحيم» نسخة حقيقية منه.

وبعد أسبوع من الحادث أعلنت «الإف. بي. آي» عن حاجتها إلى مترجمين عرب، وعنوان موقع على الأنترنت لتقديم الطلبات. قرأت الإعلان وشعرت بمزيج من الهشاشة والحماسة. ماذا في إمكاني أن أُقدّم لمساعدة بلدي في هذه المحنة؟ بأيّ وسيلة تخدم مهاجرة مثلي، لا حول لها ولا قوّة، دولة أميركا العظمى؟

لم يكن ممكناً أن أبقى لامبالية، قانعة بالعيش مع أُمنياتي الصغيرة وسعال أُمّي وغيبوبة أخي، بعد أن رأيت الحريق أمامي.

بسرعة، بدون تفكير كثير لا يغيّر شيئاً، ملأت طلباً على الموقع الإلكتروني المذكور. لم أكن متهوّرة بل أعرف ما أنا مقدمة عليه.

وبعد أسبوع جاءني هاتف من واشنطن لكي أذهب للاختبار.

أمر واحد كنت واثقة منه هو أن عربيّتي لا تشوبها شائبة. إنها اللغة التي انتقلت إليّ عدواها من أبي الآشوري. وهو لم يكن يشتري لي الألعاب التي تناسب عمري لأن «المطاردة الشعريّة» كانت لعبتي المفضلة معه.

يأتي ببيت شعريّ ينتهي بحرف النون ويكون عليّ أن أردّ ببيت يبدأ بالحرف نفسه. وعندما كان الأمر يستعصي عليّ أرتجل بيتاً من عنديّاتي، فيمدّ أبي يده ويجرّ شحمة أُذني وهو يقول «من غشّنا ليس منّا... لكن يحقّ للشاعرات ما لا يحقّ لغيرهن».

وباستثناء كالفن، كان معظم الذين أختلط بهم من العرب.

- أنت يا عزيزي ممثّل الجالية الأميركيّة بيننا.

وكانت تعجبه تلك المداعبة، مثلما يعجبه أي شيء أقوله. ماي كالفن، كالفني السكّير الوديع العاطل عن العمل معظم أشهر السنة، الذي يفزع عندما يرتفع صوتي مع الأصدقاء ويتصوّر أننا نتشاجر.

- دونت ووري ماي دير... نحن نتناقش في السياسة.

- بوليتيكس، دائماً بوليتيكس!

لم أسمع والدتي تتحدث بغير اللهجة العراقية في البيت، رغم أن أبي كان يريدنا أن نتعلم أيضاً الآشورية، لغته الأُم. أما الإنكليزية فظلّت لغة الشارع والعمل ونشرات الأخبار. نلوي فكوكنا وننطق بها، لحظة نضع الأقدام على عتبة المنزل. تدور سياراتنا بنا وباللغة الإنكليزية من شارع إلى شارع، ومن سوق إلى سوق، حتى إذا عادت إلى موقفها المسقوف بالجنكو أمام المبنى، لبسنا لغتنا الأُخرى ودلفنا بها إلى البيت.

- كيف لم تنس ابنتك لغة بلادكم؟

تسأل الجارات وهنّ يسمعنني أتكلم في الهاتف مع ساهرة، فتبتسم أُمّي وتنظر إليّ باعتزاز يقارب الامتنان. كم كانت تتمنى لو أعطتني لقب عائلتها الموصليّة العريقة. زينة بهنام الساعور. لو أن نصيبي جاء من هناك

وتزوجت من أحد أبناء الخؤولة. لو أنني تشبهت بالإسبانيّات ووضعت لقب الأُمّ إلى جانب لقب الأب في بطاقة هويّتي. آه من أُمنيات السيدة بتول وعنادها ومشاحناتها مع أبي. أليس هو صاحب الفضل في لغتي... هذه الجوهرة التي تتباهى بها معلّقة حول رقبتي؟

شيء ما، لعلّه البركة، جعلني لا أنسى القراءة والكتابة بعد هجرتنا من بغداد. وكان هرمز، صديقي الألقوشي المرهف الذي أعتبره «أخلص صديقاتي»، شاعراً رقيقاً يقلّد نزار قباني. يكتب المسرحيات والقصص بالعربية ويمررها لي لكي أُبديَ رأيي فيها. كما كانت تصله كتب وروايات كثيرة بالبريد، يشتريها من مكتبة في ديلبورن أو يطلبها من «نيل وفرات» ويلتهمها مثل فاست فود ثم يمرّرها لي. كم كنت أُحبّ التمهّل في المطالعة وتذوّق وقع الكلمات. أقرأ بصوت عالٍ، مثلما كان جدّي يفعل وأنا صغيرة، وهو ممسك بالجريدة وجدّتي تستمع.

أبي أيضاً كان يحب القراءة بصوت عال. إنها مهنته التي أكلنا منها خبزنا الذي تحوّل إلى سمّ. ومثل كل المهاجرين من جماعتنا، كانت أشرطة الموسيقى وأسطوانات فيروز وأُمّ كلثوم وكاظم الساهر تتكدس في كل أرجاء شقتنا. وهي واحدة من أربع شقق تؤلف مبنىً خشبيّاً متهالكاً في «سفن مايل».

وفي ديترويت كانت لي عصابتي. ولو أراد مخرج أن يصوّر عنّا فيلماً لاقترحت عليه عنوان «عصابة زينة». هكذا كانت والدتي تسمّي مجموعة الأصدقاء والصديقات اللبنانيين والعراقيين والفلسطينيين والسوريين الذين أتزاور معهم. وكانت بيننا مصريّة وحيدة لا تملّ من الحديث عن محمد صبحي ومسرحياته، ولم أكن أعرف من هو.

تلتقي عصابتي للعشاء في مطعم عربي، أول سبت من كل شهر. نتحدث ونضحك ونأكل التبولة والمجدرة والشاورما، ونرقص على إيقاع العود والطبلة. وهو المساء الذي ينتظره كالفن بلهفة ليتحرّر منّي.

نجحت في اختبار اللغة وبقيت أنتظر أن يرسلوا في طلبي. لكنهم تأخروا.

قامت الحرب من دوني. وسمعت خبر شنّها من التلفزيون بعد أن حصل الرئيس على موافقة الكونغرس. من كان يعبأ بالأُمم المتحدة؟ أي أُمم وأي هراء؟!

مع بدء العمليات أصبحنا جميعاً من عبدة التلفزيون. نعاقر نشرات الأخبار ولا نشبع. وإذا حدث وغفا أحدنا أمام الشاشة امتدت عشرات الأيدي لتهزّه كي يستيقظ. من ينم يخسر التاريخ!

ورغم حماستي للحرب أكتشف أنني أتألم ألماً من نوع غريب يصعب تعريفه. هل أنا منافقة، أميركيّة بوجهين؟ أم عراقيّة في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في أرض العدو من سنوات؟ لماذا أشعر بالإشفاق على الضحايا وكأنني تأثرت بالأُمّ تيريزا، شريكتي في اسم القديسة شفيعتي؟ كنت أنكمش وأنا أُشاهد بغداد تقصف وترتفع فيها أعمدة الدخان بعد الغارات الأميركيّة. كأنني أرى نفسي وأنا أحرق شعري بولاعة سجائر أُمّي، أو أخزُ جلدي بمقصّ أظافري، أو أصفع خدّي الأيسر بكفّي اليمنى.

لماذا أعجز عن الجلوس في مقعدي لخمس دقائق؟ أقول للأُخرى التي هي أنا إنّ هناك أطفالاً يفزعون وأبرياء يموتون بلا ذنب في بغداد. أقول لها إن الأطفال يمكن أن يكونوا أبناء رفيقاتك في الدراسة، والأبرياء

قد يكونون أولاد عمك وبنات خالاتك. والجثة المتفحمة على مدخل مستشفى الكرخ قد تكون لسهيل، ابن جارتكم الست لميعة، الولد الذي أراد أن يقبّلك على سطح بيتكم في «الغدير». هل نسيت تلك القبلة الأُولى في كل تاريخك، يوم صعدتما تحملان نظارات من الكرتون وزّعتها جريدة «المزمار» لكي تتفرجا على خسوف الشمس، وكنت دون العاشرة؟

والتلفزيون لا يتوقف عن شحننا بالانفعالات. إن شاشته تضخّنا بالأدرينالين وهي تعرض مشاهد دخانيّة وتنقل أصوات مدافع تدوّي وقنابل تتفجّر ورجالٍ يركضون هاربين من الموت، أو صبية هلعين، صفر الوجوه، لكنهم يشيرون للمصور بعلامات النصر.

رأيت جموعاً من الأهالي تدخل وتخرج من المباني الحكومية وهي تحمل، فوق الرؤوس أو على الظهور، طاولات وثريّات وكراسي وزهوراً اصطناعيّة. الكل يركض ويسبق لكي يغنم ويعود وهو يدفع غنائمه على عجلات. بعضهم يضحك للكاميرا عندما تغافله، وأغلبهم يشيح بوجهه لكي لا يواجه عدستها.

صارت بغداد مشاعاً لأهلها. والعراق بلا والٍ.

ورغم كل ما شاهدته فإنني لم أشعر بالخوف ولم أرغب في التراجع. لذلك تقدمت للعمل حالما جاءت ساهرة وألقت في حضني بتلك الجمرة الحرّاقة. ولم أنتظر هذه المرة طويلاً بل جاءني اتصال من رجل لم يذكر لي اسمه، أجرى لي اختباراً سريعاً على الهاتف لترجمة جملة إلى العربية، وسألني بضعة أسئلة حول عمري ومؤهلاتي وحالتي الصحية ووضعي الاجتماعي والمالي. كان يريد أن يتأكد من أن المتقدم غير متورط في الديون ويريد السفر من أجل المال فحسب.

أجبت على كل الأسئلة بهدوء، بما قلّ ودلّ، وأنا أُحاول أن أتخيل سحنة الرجل الذي يكلمني عبر الهاتف. ولا أدري لم ألصقت على صوته صورة شون كونري، رغم أنني أتقدم للعمل كمترجمة لا كعميلة استخبارات. ويبدو أن هدوئي أقنعه بأنني صالحة للمهمة، فطلب مقابلتي وأرسل لي، بعد يومين، بطاقة سفر إلى العاصمة.

ودّعت أُمّي وجايزن وسافرت في صباح غائم إلى واشنطن لألتحق بالعشرات من العرب المتقدمين للعمل نفسه. ومن هناك خابرت أبي في أريزونا وقلت له إنني ذاهبة إلى بغداد. ولم أسمع رداً، ثم همهم بعبارات فهمت منها أن الفكرة لا تروق له، لا لأنه يخاف عليّ من الحرب بل لأنه ما يزال يتوهم أنه محكوم بالإعدام هناك، وقد يمسك رجال الأمن بي بدلاً منه.

هذا هو، إذاً، مقر «السي. آي. إي» في فرجينيا...

المكان الذي تروى عنه الحكايات همساً صار مزاري اليوميّ. لم يعد لغزاً متوارياً خلف الأسوار الخضراء والأشجار العالية الجيدة التنظيم. إنه مجموعة مكاتب وموظفين عاديين، بينهم اللبيب الذي يقرأ تعابير وجهي، وبينهم الغبيّ الذي يمضي الوقت في مداعبة خصيتيه في انتظار المرتّب آخر الشهر.

أخضعوني لمقابلات مفصّلة وأجلسوني في محاضرات حول طبيعة العمل، وعرضوا عليّ خرائط وأفلاماً عن جغرافية المكان، وأرسلوني لإجراء فحص طبّي شامل. لم أكن وحيدة في ذلك العرس العَجيب بل كانت شركات توريد المترجمين تتكاثر وتضخّ عشرات المتقدمين كل يوم. عراقيّون وعراقيّات من مختلف المذاهب والأُصول، بينهم المهاجر

الجديد نسبيّاً، أي الذي وصل أميركا آتياً من معسكر رفحة بعد حرب الكويت، أو المهاجر المعتّق، أي الذي جاء في ستينيات القرن الماضي طلباً للرزق، أو «النص نص»، أي ابن السبعينيات الذي هرب من ملاحقة البعث للشيوعيين، قاصداً أُوروبا الشرقيّة، وانتهى في كعبة الرأسماليّة.

أراقب ما حولي فأرى خليطاً عجيباً من المتديّنين المتأمركين، ومن اليساريين الذين ضيّعتهم بوصلة موسكو. ممثلون نزقون مغرورون وآخرون منطوون على أنفسهم يصلحون، جميعاً، لتمثيل فيلم عنوانه «مالي شغل بالسوق». نساء بالحجاب وفتيات بالسراويل الضيقة. رجال بشوارب ستالينية، وشباب برؤوس حليقة على طريقة مغنّي الراب. ولم نكن كلّنا عراقيين. كان معنا مترجمون من بلاد عربيّة أُخرى، وأجانب مستعربون أيضاً.

ملأ كل واحد منا أوراقاً تصل في حجمها النهائي إلى ما يشكل ملفاً سميناً. أسئلة كثيرة عن كل فرد من أفراد العائلة وأعمارهم وأماكن إقاماتهم وجنسياتهم السابقة والحالية. وسمعت بعثيين سابقين يتندرون فيما بينهم بأن هذه القوائم تشبه تلك التي كان النظام يطلبها من أنصاره. إسمك واتجاهك واتجاه أخيك وقياس سروال أبيك وألوان أعين شقيقاتك وعناوين كل أقاربك حتى سابع ظهر.

أخذت وقتي في الرد واعتنيت بخطّي. وكان هناك سؤال عن الأقارب الذين ما يزالون يقيمون في العراق، أجبت عليه بأن جدّتي، من ناحية أُمّي، تقيم في بغداد وأنها عائلتي الوحيدة هناك.

جدّتي رحمة جرجس الساعور. هكذا كتبت اسمها مترجماً إلى الحروف الإنكليزية. وفي خانة تاريخ الميلاد ومكانه كتبت: ١٩١٧، الموصل.

IV

«تشيييز» ...

صاح المصوّر صيحته التقليدية، آمراً إيّانا أن نكشف عن أسناننا فانصعنا للأمر جميعاً مثل ممثلين في إعلان لمعجون كولغيت وابتسمنا للصورة. وسيعود المصور إلينا بها، بعد أقل من أُسبوع، مكبّرة ومحميّة بورق ضبابيّ شفّاف. وسنتلقّفها ونتداولها فيما بيننا ونحن نعلّق عليها شتى التعليقات. وسأتناول الصورة بحرص وأمضي إلى حجرتي وأعود بعد قليل وقد وضعتها في الإطار الثمين الذي اشتريته لها، مسبقاً، من قسم ديكورات المنزل لدى «ميسيز».

إستقرّت على رفّ المدفأة في غرفة المعيشة صورتنا التذكارية التي نبدو فيها، نحن الأربعة، واقفين في حديقة بيتنا وقد اتّخذنا هيئة رسميّة في اليوم الذي أصبحنا فيه أميركيين. يا له من يوم انتظرناه بفارغ الصبر!

لا يحتاج من يتأمل الصورة لفطنة كبيرة ليعرف أن أبي ارتدى، للمناسبة، البدلة الكحلية التي فصّلها له مجّودي الخياط في سوق بغداد الجديدة. أما الصبيّ الأشقر النحيل الذي هو أخي جايزن والشابة السمراء التي تبدو وكأنهم استعاروها من أُسرة أُخرى، أنا، فقد لبسنا ما أمرتنا به أُمّي، بدون مناقشة.

هي وحدها التي لم تتهندم، ولم تمرّ بقلم الكحل الأسود الرفيع على جفنيها العلويين، زينتها الوحيدة التي تتمسّك بها. كانت قد ارتدت فستانها القديم الأزرق الواسع الذي نعرف حالما نراها فيه أننا في يوم التنظيفات الكبرى. ولم تنفع احتجاجاتنا في زحزحة عنادها.

ـ العناد وحمة وُلدت بها بتول... خلقة من الله...

هذا ما كانت تقوله جدّتي عن ابنتها البكر، أُمّي.

بتول لم تتهندم وتتزين مثل الآلاف الذين غصّت بهم المنطقة المحيطة بجامعة «وين ستيت» في ديترويت. كانت البلدية قد صفّت آلاف الكراسي في الشارع العام، وجاءت الحشود السعيدة من عرب وبورتوريكيين وصينيين وهنود واحتلت الأماكن. كلّ واحد يرتدي أفضل ما يملك من ثياب، كأنه عيد، بل أندر من العيد لأنه لا يتكرّر مرتين.

مشت أُمّي مبتعدة عنّا كمن تسير في جنازة. وجلست ملمومة على نفسها تحتضن حقيبتها اليدويّة وكأنها تتستّر على شيء ما في داخلها، وبدأت ترمق شزراً جيرانها في الصفوف الأماميّة والخلفيّة، أولئك الذين لا تسعهم الفرحة بحلول موعد تجنيسهم. إنه عرسهم الجماعيّ. اللحظة التي ستطرد عنهم الخوف وتبعد شبح التشرّد إلى الأبد. اليوم الذي سيؤدون فيه يمين الولاء للوطن الجديد الفائض الخيرات. وبعد أداء القَسَم، سيحقّ لكلّ منهم أن يدفع بصدره إلى أمام ويتباهى: «آي آم أن أميريكان سيتيزن».

حين بدأ مكبر الصوت ينقل خطاب حاكم الولاية وهو يقرأ النص الذي يعلن الولاء للأرض الجديدة، حين نهض حشد الرجال والنساء واقفين وارتفعت أصواتهم جميعاً مردّدة وراءه عبارات القَسَم بانفعال وتوكيد،

حين راح الأميركان الجدد الحاصلون على الجنسيّة، للتوّ، يتعانقون ويتبادلون التهاني... حينها سمعت صوت أُمّي يتحشرج وكأنها تختنق، والتفتّ إليها ورأيت وجهها الأبيض الوديع وقد صار قرمزياً كمن داهمتها حمّى، والدموع تهطل غزيرة من عينيها وتفرّ متبخرة من سخونة خدّيها، مثلما يحدث عندما تتساقط قطرات الماء من إبريق الشاي على عين الموقد الكهربائي.

مددت يدي وتلقفت يد ماما المتيبسة، بينما الجموع تضع أيديها على مواضع قلوبها وتلهج بالنشيد الوطنيّ الذي تعزفه فرقة للجاز: «يا رب احفظ أميركا... غاد بلِس أميركا». وكان صوت السيدة العراقيّة بتول الساعور، أُمّي، هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية: «سامحني يا أبي ... يابا سامحني».

كيف حضر جدّي يوسف، أبو أُمي، إلى شارع الجامعة في ديترويت؟

V

إنه يوم تجهيز الملابس العسكرية.

أدفع عربتي أمامي وأقف في صفّ طويل من النساء والرجال، كأننا في السوبرماركت. نتقدّم في اتجاه مخازن الثياب بدل أن نستعرض صفوف المعلبات والحليب. طاولات متجاورة ممدودة أمام أرفف محشوة بالثياب المطوية. سراويل وقمصان خاكية، أحذية وجوارب، أحزمة، ثياب داخلية صوفية، كأننا عرائس والجيش مكلّف بجهاز العروس. فعلت كما كان يفعل الذين ساروا قبلي. كل واحد يمدّ اليد إلى الرفّ ويضع في العربة ما يناسبه. وكانوا قد أخذوا قياساتنا في اليوم السابق لكي نعرف ما نختار.

يوم من خمسة أيام للاستعداد العسكري سبقت السفر.

أول نزولنا إلى المعسكر نادوا علينا بالاسم، بصوت عال. زينة بهنايم. هكذا يلفظون اسمي هنا. تقدمت وتأكدوا من هويّتي وأعطوني شرشفاً ووسادة ولحافاً. حملت جهازي تحت إبطي وسرت نحو غرف النوم. كل أربعة أو خمسة في غرفة. واليوم التالي للفحص الطبي. قام به أطباء من الجيش، لا يختلفون عن غيرهم إلا باللباس العسكريّ. ويوم آخر لملء الأوراق الرسمية بالمعلومات الخاصة. هل في حياتي كل هذا الذي أُسأل عنه؟

وصلنا إلى المعسكر في طائرة مدنية من ديترويت. ثم كان هناك باص عسكري ينتظرنا. عندما وضعت قدمي اليمنى على درج الباص، في تلك اللحظة، فقط، أدركت أنني قد طويت عمري الماضي كله. هذه، أمام عيني، صفحة جديدة وحياتي لن تكون، بعد الآن، مثلما فات.

البنت التي كبرت وهي تتابع أحلامها تتفرقع مثل البالونات عند انفضاض أعياد الميلاد ستذهب إلى الحرب. البنت الخائبة التي بكت، مرة أو اثنتين، حباً فاشلاً، تمضي لكي تصبح مجنّدة في جيش الولايات المتحدة الأميركية.

لم أستسلم طويلاً لخواطري. ليس وقت «دالغات». كان رفاق الباص يعبّرون عن توتّرهم بافتعال الصخب والضحك على أي شيء. تأكدت أن القهقهات ليست، حكماً، دليل سعادة. كان بنيامين، فرّاش النادي الآثوري، يضحك بدون توقف بعد مقتل ابنه في حرب الأكراد. وبعد أيام لم أعد أراه لأنهم نقلوه إلى الشماعيّة.

رافقتنا، في الباص، شابتان، يبدو أن الأولى مصرية والثانية لبنانية. عرفت ذلك من لهجتيهما. وكانت المصرية تستولي على المشهد وتلفت الانتباه؛ محتالة بالفطرة. حكت لي، فيما بعد، أنها ألقت بشباكها على أميركي زار الإسكندريّة فتزوجها وجاء بها إلى بلده. أخذت الجنسية وانفصلت عن زوجها بعد أن حملت من موزع بيتزا كوبيّ. التحقت بالمترجمين وتركت طفلها الرضيع مع زوجها. كانت سمراء ممتلئة ذات شعر طويل وحركات راعشة. أعجبتني صراحتها وشعرت بأننا يمكن أن نكون صديقتين.

جاءت اللبنانية معها بحقيبتين، كل حقيبة بحجم مدينة، مملوءتين بالثياب الجميلة وأدوات التجميل. قالت لي إن اسمها رلى. جلست متأنقة

في الباص، تضع ساقاً على ساق وكأنها تسافر في رحلة شهر عسل إلى باريس.

ونادية، المصريّة التي تضحك وكل ما فيها يرتعش بفعل تيار كهربائيّ خفيّ يسري في مساماتها، كانت تخبر رلى بأنها تريد أن تعمل في أحد القصور الخرافيّة في المنطقة الخضراء. كل شيء في لغتها «خرافيّ». وسمعت رلى تردّ عليها بأنها لن تقبل النزول إلا في «فندق بغداد»، ولا أدري من الذي حدّثها عنه. كانت تقلب شفتها العليا السمينة وتقول:

- حتى لو ما دفعولي منشان الأُوتيل بدفع من جيبتي.

ما أكذب الخيال الحالم بالمغامرة!

كيف كان لهذه البنت المدللة أن تعرف أننا ذاهبون لننام في حضن الموت ونتغطى بأكفاننا؟ أنا نفسي لم أكن أعرف، ولا ساهرة ولا الكابتن دونوفان ولا بايرن الذي وجدوا جثّته طافية مع طحالب الفرات.

إستيقظنا في الخامسة فجراً لنلحق بطابور تسجيل الحضور. صار نظامنا نظام معسكرات. كل ما حولنا خشن وذكوريّ، ونحن غير مدربّات، بعد، على الاسترجال. لا ينفع، هنا، الجهاد للحفاظ على الأُنوثة. أنت إمّا جنديّ أو جارية.

إصطففنا، نحن بنات الباص، مع الجنود. هم بثيابهم الخاكية ونحن بملابسنا المدنية وسراويلنا الجينز اللاصقة وأحذيتنا العالية. نظرت إلى الأُخريات فرأيت من وجدت وقتاً لتحديد الشفتين وطلائهما بالأحمر ووضع طبقات الماسكارا على الرموش. في أي ساعة استيقظت هذه العيون الخناجر؟

في اليوم التالي تسلّمت بدلتي العسكريّة بعد أن خاطوا اسمي عليها. كانوا قد تركوا لنا الخيار بين الاسم الحقيقي للعائلة أو أي اسم آخر، لضرورات الحماية الشخصية. اختفت الجينزات اللاصقة والكعوب العالية. ما عاد في الإمكان فرزنا عن جنود المعسكر. وأراحني ذلك لأنه كان علامة ملموسة على شخصيتي الجديدة. زينة المقدامة الذاهبة إلى الحرب.

ثم جاء يوم الرحيل.

VI

إحتشدت الكلمات في رأسي وتسارعت وتدافعت وتداخلت مثل غيوم بيض تهرب على عجل، ثم توقّفت مرّة واحدة وزخّت مطرها الحاذق على أصابعي. أتسابق مع لمسات الحروف على لوحة الكومبيوتر لئلا تتشتّت مني الصور كما تفتت تلك الغيوم البيض وقد طردتها الريح.

أكتب وأنا أعرف أن لغماً قد ينسفني في أيّة لحظة. شظيّة تسقط على رأسي في المنطقة الخضراء وتحوّلني إلى عود شخّاط أسود محترق. هل أعيش لأُكمل هذه الحكاية التي لا تخصّني بقدر ما تخصّها هي، جدّتي، عدوّتي، حبيبتي وصورة شيخوختي؟

لذلك، لا أرغب في الاستجابة لهذه المؤلفة اللجوج التي تزاحمني على الكومبيوتر وتجلس لصقي، الكتف للكتف، كأننا ثنائيّ يعزف، مرغماً، على بيانو واحد. إنها تريد أن ننقر معاً، بأربع أيد وعشرين إصبعاً، قصة الحفيدة الأميركيّة العائدة إلى بيت العائلة في بغداد. وأنا لا أُريد هذه المؤلفة إلى جواري، أدفعها عنّي وأتمرد على محاولاتها وأنقر على لمسات تمسح المكتوب على الشاشة.

أزعجتني المؤلفة منذ أن رأيتها تدور وتناور وتفتعل المواقف لكي تكتب رواية وطنية على حسابي.

تريد هذه الكاتبة الغريبة أن تغتالني لكي تنال إعجاب النقّاد الحمقى وسياسيي التلفزيونات ووطنيي زمن العصملّي.

أن تجعل مني الشخصية الشريرة الملعونة، ومن جدّتي بطلة طيبة وشجاعة، شيئاً مثل أمينة رزق في فيلم «ناصر». سيدة عريقة وذات مبادئ، تأبى أن تتلقى العزاء بجدّها الذي قضى وهو مسخّر لحفر قناة السويس إلا بعد أن ينتصر الضباط الأحرار وتقوم ثورة يوليو.

تراني المؤلفة ربيبة للاحتلال، وترى جدّتي من نفائس المقاومة.

أنا مجدلية خاطئة وشابة تُرجم بالحجارة، وجدّتي عذراء في الثمانين تحبل بلا دنس.

رسمت لي ملامح البنت الضالة، العائدة فوق الدبابة الأميركية مثل رامبو بصيغة المؤنث، نزيلة المنطقة الخضراء، سجينة الشخصية المرذولة التي تجتهد المؤلفة لتلف حبالها حول عنقي، وتفرض عليّ أن أستسلم لخيالها القومي المتوارث بلا تنقيح. خيال بالأبيض والأسود، على شيء من اصفرار الصور القديمة. خيال بائس لا يفقه تلاوين الفوتوشوب.

هذا فخ لا يعجبني ولا شأن لي به. حبكة روائية ضيقة تخنقني وتسلبني الحق في أن يكون لي رأي في أي شيء، على الأقلّ في أُمور هذا الوطن الذي ولدت أنا وأُمي وأبي على أرضه. لماذا تحرمني المؤلفة من أن أُشارك على طريقتي وبكامل قناعاتي في الرواية، بدون أن يكون أمامي ملقّن يجلس في حفرة المسرح؟

أُراهن أن هذه المؤلفة لم تعرف في حياتها سوى كلام الملقّنين. لم

تبتدع جملة من عندها. لم تذق لذّة الإفصاح عما في الرأس، بالصوت العالي، بلا خشية من الزجر ومن كفّ خشنة ترتفع وتهوي على لدانة الخد. إنها تخاصم ما تقول به العقول وتؤمن بما توسوس به القلوب، وترى أن الفصاحة هي مفاتيح تلك القلوب والشِعر سواقيها.

كيف أقول لها بأنني أقوى منها؟ وبأنني أكاد أُشفق عليها من سذاجتها وأرثي لوطنيتها التي ولّى زمانها وتحجرت، بل تمومأت قبل أن تتحول إلى هلام عفن مثل طرشي يعوم في خلّ فاسد؟ سأسحب تفويض الكتابة منها وأُصارحها بأنني أموت من الضحك على عشقها للشعارات، وعلى عمى بصيرتها واحترافها تلك المهمة الجلل التي تحثها على تأليف الروايات، وكأنها تسير في المظاهرات الصاخبة وتردّد الهتافات المتفق عليها سلفاً. عاش عاش ... يسقط.

لن أستجيب لها.

لتذهب مؤلفتي إلى حيث...

بل إنني سأُحرّض جدّتي رحمة عليها أيضاً. إن جدّتي امرأة تتمتع بالحكمة ولا تقع في الفخاخ السهلة. وهي لن تستريح في وشاح مريم العذراء ولا جلابية أمينة رزق. وبالتأكيد هي لن ترضى أن تضع وطنيتها في عهدة كاتبة مسختها أزمنة الانقلابات الثورية والأحزاب القومية وجعلت منها بوقاً من ورق. كلا، لن أدع جدّتي تمنحها تاريخ جدّي.

يا إلهي كم نتقاطع، أنا وذلك التاريخ، وكم نختلف!

لكنه تاريخي من قبل أن أُولد، وأنا سليلته وصاحبة الحق فيه، مهما بدوت غريبة عنه وناكرة له. فهل تظنّ تلك الكاتبة الغشيمة أنني سأتخلى

لها عن إرثي، حتى ولو كان وطنية مهلهلة لم تعد تنفع في شيء ... عملة جرى تسقيطها من زمان؟

VII

على اللابتوب، من مطار راينماين العسكري، قرب فرانكفورت، كتبت لكالفن أول رسالة بعد مغادرتي ديترويت.

« نحن في ألمانيا وأنت في بالي لأن رائحة البيرة تملأ استراحة المطار. لا تفرط في الشرب. لا تقلق عليّ. لا تنس سقي نباتاتي. وإذا غبتُ طويلاً وأردت أن تحبّ عليّ فلا تخترها عراقيّة هذه المرّة... جحيم واحد يكفي في الحياة».

كانت طائرة مدنية قد نقلتنا إلى ألمانيا ومنها تولّت الطائرات العسكرية الذاهبة والآتية في حركة دائبة نقلنا إلى العراق. كل طائرة تأخذ منا العدد الذي تسمح به مقاعدها الفارغة.

للمرّة الأُولى في حياتي أصعد إلى طائرة من طيزها. هكذا تفتح طائرات الكارغو C ١٧ ، من الخلف. أما بوزها فكان عريضاً مثل كوسج. وقفت أتأملها وأُفكر بأخذ صورة أمامها لكنّ يداً قويّة دفعتني نحو الدرج.

أين المقاعد؟ كانت طائرة شحن ضخمة وبشعة. وهناك، على مدار جدرانها أماكن متصلة للجلوس. وفي الوسط تكومت حقائبنا مربوطة بأحزمة تمنعها من التدحرج. وحتى هذه لم تكن تشبه حقائب المسافرين بل مجرد قماشة خضراء خاكيّة بسحّاب طويل حشرنا حاجياتنا فيها.

تطلعت في الجالسين حولي وأحصيت تسعة وعشرين نفراً. خمس نساء والباقي رجال في تلك الرحلة الخرائية المتعبة. كانوا قد أعطونا كرات صغيرة صفراء من الفلّين لكي ندسّها في آذاننا فنكتم، إلى حدّ ما، الضجيج الهادر للطائرة. ولم نتبادل طوال ساعات السفر الخمس أيّ كلام بل ركبنا صمت مشحون بالقلق والترقب. وحتى من حاول منّا تبديد التوتر بافتعال حديث ما فإنه كان مثل الممثلين في الأفلام الصامتة؛ صوته يضيع وراء هدير المحركات.

وامتدت يد أعطت لكل منا صندوقاً من الفلّين. فتحت صندوقي فوجدت فيه ساندويتشة وكيس بطاطا وقنينة كوكاكولا وقطعة بسكت. وأكلنا مثل كائنات بدائية. وحالما انتهينا أعلن الكابتن بأننا سنتزود بالوقود ونحن في الجو، وحذّرنا من أننا قد نحس إحساساً غير مريح. ثم جاءت طائرة وجثمت فوق طائرتنا لمدة نصف ساعة. وانتابني الغثيان حالما التصقت بنا الطائرة الأُخرى مسبّبة هزّة تشبه المطبّ الهوائي الشديد.

فكّرت بأن عنوان هذا الفيلم يمكن أن يكون «الخمس المرتعبات والرجال الأكثر رعباً». ولم يكن بيننا من يحاول أن يلعب دور رامبو. إن ذاك فيلم آخر. وخشيت أن يتسبب صبّ البنزين في انفجار وشيك، لكن العملية مضت على ما يرام، والمهم أنني لم أتقيأ. ولم أكن الوحيدة التي سحبت نفساً عميقاً بعد زوال كابوس الطائرة الثانية وابتعادها عنا، وتبادلنا الابتسامات لأننا كنا أعجز من أن نصافح بعضنا بعضاً.

ووصلنا.

وتلبستني، رغم الترقب والإجهاد، حالة غريبة من الشفافية عندما دخلنا الأجواء العراقية. خُيّل لي أنني أشمّ عبق زهر القداح على أشجار النارنج

في الحدائق، والرائحة الشهيّة للدخان المتصاعد من السمك المسقوف. حالة لم تدم أكثر من دقيقة، أُطفئت بعدها الأنوار الكاشفة لأننا بدأنا نحلّق في سماء بغداد. أحسست بفداحة هذا الظلام وبلا عدالته. والستائر مسدلة لا تتيح لي إلقاء نظرة على المدينة. وتذكرت مخاوف أُمّي بعد أن قرأت عن القاذفات التي تستهدف الطائرات التي تحطّ في بغداد. لو كانت معي الآن لأمـرتنـي بأن أُصلّي.

يا مريم العذراء أوصلينا بالسلامة... يا مريم...

حين استقرت الطائرة على الأرض وتوقف هدير محركاتها شعرت وكأن صمماً أصابني فجأة. وقمت واقفة مثل تمثال دبّت فيه الحركة، لكنّ توازني اختلّ وتهاويت في مقعدي. وقمت ثانية وتبعت الآخرين، وانزاح الباب الخلفي الكبير على مهل وعيناي تتحركان معه مثل الكاميرا، من اليمين إلى اليسار، لكي لا تفوتني الوهلة الأُولى. لكن بدا لي وكأن ستارة حمراء تغطي باب الطائرة من الخارج. وكان ما شاهدته عاصفة رملية لم أر مثيلاً لها من قبل.

أردت أن أسبر اللجّة الحمراء بنظري فانكمشت أجفاني. كان من الصعب استكشاف المشهد الجهنميّ الذي حللنا فيه لأننا لم نكن نرى أبعد من أقدامنا. وفوق حرارة الجو، فإننا كنا نرتدي بدلاتنا العسكرية الشتائية المصنوعة من الصوف السميك، لأن الطائرة التي نقلتنا لم تكن كاملة التكييف. وبحركة تلقائية امتدت يداي إلى الياقة الثقيلة لسترتي ورفعتها لتغطية وجهي، درءاً للرمل.

في تلك اللحظة، مع رائحة الطوز النفّاذة، شممت العراق وكأن البلد كلّه تجمع في أنفي. وميّزت عبقه الذي أعرف ولفح هوائه الساخن على

الوجوه. وكانت نادية المصريّة ترتعش ورلى تسعل وكأنها ستموت. ومددت يدي أضرب على ظهرها وكأنني مسؤولة عما يصيبها. هذا بلدي ورلى ضيفتي، راحتها واجبي.

سأضع لهذا الفيلم عنوان «العودة المتأخرة». وفيه تعود البطلة إلى الأرض التي غادرتها قبل خمس عشرة سنة، لا عودة زائرة مشتاقة إلى مسقط رأسها بل جنديّة إلى أرض قتال.

يا مريم العذراء... أعينيني.

VIII

غادرنا الطائرة، جاء عساكر وأفرغوها بحركات ميكانيكية. وقفنا منكمشين نبحث عمن يستقبلنا، وعلى جانبي المدرج الذي هبطت طائرتنا فوقه كانت صناديق التموين والتجهيزات ومواد البناء تتكدس أمامنا بالقدر الذي تسمح به الرؤية.

فكّ العساكر أربطة الحقائب ورموا بها على أرض المطار الجرداء. وكان على كل واحد منا أن يعثر على حقيبته ويسحبها إلى جانبه. ولأنها كلّها كانت خضراء غامقة ومتشابهة فإنني كنت قد كتبت اسمي بقلم أسود عريض على قماش حقيبتي. وكانت لي حقيبتان أخريان صغيرتان معلقتان على الظهر والكتف.

سرت لمسافة لا تتجاوز الثلاثين متراً وأنا أحمل حقيبتين وأسحب أُخرى، حتى أحسست بأن كتفيّ ستنخلعان من مكانيهما. وتوقفت لكي أستريح عندما سمعت صوت نادية بيومي تصيح:

- يا ليلة منيّلة ستين مليون نيلة...

إلتفتّ نحوها فوجدتها تتأرجح فوق كعبها العالي وتتساند مع جندي أسود لكي ينقلا حقائبها الثقيلة. لماذا لم تنتعل البسطال؟ بدت لي وكأنها تؤدي دوراً في فيلم مصريّ، فأنا لا أسمع تلك العبارات إلا في الأفلام التي

يعيدها التلفزيون، ولم أكن متأكدة من أن هناك بشراً حقيقيين يستخدمونها.

سحبت نفساً عميقاً ملأ رئتيّ بالطوز، وواصلت زحفي إلى صالة المطار. رأيت زجاج الشبابيك مكسوراً ومهشماً فوق الأرض الرخامية. رحنا ندوس عليه فنسمع صوت تفتته تحت بساطيلنا الثقيلة. ولمحت في كل زوايا الصالة الكبيرة جنوداً أميركيين يحتضنون خوذاتهم ويغطّون في النوم مستغرقين في أحلام لا علم لي بها. ولم يكن منظرهم منظر من ينام نومة متقطعة تقلقها الهواجس والكوابيس. بدوا لي، أنا التي يكاد ظهرها أن ينقصف من الألم، أنهم يرقدون في أحضان حبيباتهم بعد مضاجعات عنيفة امتصت قواهم، يغفون غير مبالين بالزلزال الذي هزّ المدينة ولا بما ينتظرهم فيها عندما سيفتحون أعينهم في الغد.

والغد كلمة غامضة في قواميس الحروب، عدا أنها لا تصلح عنواناً لأي شيء هنا. والنائمون جنود وصلوا قبلنا. وهناك جنود سيصلون بعدنا. ومطار بغداد الذي كان اسمه مطار صدّام هو محطتنا الأُولى في انتظار تسفيرنا إلى مواقعنا. كل يوم تأتي حافلات وطائرات هليوكوبتر وتأخذ الغفاة السعداء إلى أماكن خدمتهم.

وجدنا جندية وجندياً في استقبال دفعتنا، يجلسان على أريكتين مكسورتين وأمامهما منضدة مضعضعة وكومبيوتر وبضع وريقات. كانا يراجعان أسماء الواصلين حديثاً وأماكن التحاقهم.

ولأنني اعتدت أن أكون رئيسة عصابة فقد قدت مجموعتي وتقدمت من الجنديين وأخبرتهما بأننا مترجمون وصلنا للتو من ديترويت، فأين نتجه؟ ردّت عليّ المجندة بأن علينا انتظار ممثل شركة إنترترانز التي تعاقدت معنا. ولم يكن جنابه قد شرّف بعد.

والتعب لا يسمح بالتفكير. والنائمون يحرضوننا على التشبه بهم. والزوايا لا تكفينا، وكل من حولي يتذمر بالعربية ويلعن الشركة وأبا الشركة. هاي شلون ورطة؟... هاي وينهم؟... وين جابونا ونسونا؟

دفعت حقيبتي الكبيرة لصق الحائط، واستلقيت مسندة ظهري إليها، وخلعت السترة ورميتها فوق رأسي ونمت حتى الصباح. ورغم نومتي المرتجلة فقد رأيت حلماً عجيباً...

رأيتني أطرق باب بيت جدّي يوسف في شارع الربيع وأنا مرتدية فستان عرس بنفسجيّ اللون. ولم يكن البنفسجيّ من ألواني المفضلة لكن الأحلام لا تترك لنا رفاهية الاختيار. وقد فتح جدّي الباب ولم أخفْ منه رغم علمي، وأنا في الحلم، بأنه قد مات. وسألته:

- متى جئتَ من السفر؟

ردّ:

- قمت من يومين. أردت أن أحضر عرسك يا سناء.

ولم أُصحّح له اسمي. لم أقل له إنني زينة، أو زوينة كما اعتاد أن يناديَني، لكنّ جدتي رحمة أطلّت من وراء كتفه وقالت:

- هذي زُنزُن، ألم تعرفها؟ المكرودة تزوجتْ وأنت غائب وها هي تعود إلينا بعد أن ترمّلت... يا عيني عليها.

إجتزت باب الحديقة وتقدمت من جدّي لكي أقع على يده وأُقبّلها. لكنه سحبها فانسحب جسده بالكامل من المشهد، وفي اللحظة نفسها تحوّل لون فستان عرسي إلى الأسود وبقيت جامدة في مواجهة جدّتي، نتبادل نظرات الأسى في الحلم... الفيلم؟

IX

الصباح جميل ولو في منازل الشيطان، فكيف لا يكون كذلك في بغداد!

لم أتثاءب، حين فتحت عينيّ، ولم أشعر بجوع أو عطش. كانت عاصفة الغبار قد مرّت وصفت السماء. قلت لنفسي إن هذه الشمس الساطعة هي كل ما أحتاجه. لكن القلق عاد وتلبّسني وكأنه بطانة لخوذتي تلتصق برأسي. أريد أن أصل إلى المقرّ النهائي لكي أخلع ثيابي وأُصوبن جسمي وأغسل شعري من التراب والعرق.

بقينا ندور حول أنفسنا، ننهض ثم نتعب ونقعد على حقائبنا، إلى أن جاءنا ضابط لكي ينظر في أمر وجبتنا. شاب وسيم برتبة رائد، وكنت وقتذاك لا أعرف تمييز الرتب من النظر إلى الشارات المطرّزة على البدلات المموهة، لكني سرعان ما تعلمت أن ورقة الشجرة الشبيهة بوردة على الصدر تعني أن صاحبها رائد.

صاح:

- هل هناك أحد من إنترترانز؟

هببنا واقفين، ورحنا ننادي الناقصين من جماعتنا لكي ينضموا إلينا. أركبونا في الباص وأخذونا إلى قصر صدّام القريب من المطار. وحال

وصولنا بدأت نادية بيومي بالشكوى:

- ميجر... لقد وعدوني بإرسالي للترجمة مع قطعاتنا في كويت سيتي.

- لا، عملكم سيكون في العراق فحسب.

رأيت القصر مهجوراً، مقصوفاً ومحطماً، تتناثر الأحجار في صالاته التي نجتازها مثل أشباح مبرمجة على الدهشة. وانتهينا إلى صالة تشرف على بحيرة صناعية قيل لنا إن صدّام كان يصطاد السمك في مياهها. والحديقة التي يفترض أنها كانت جنّة أرضية تحوّلت إلى مستنقع للبعوض، ودغل الحشائش يرتفع إلى أعلى من قامتي.

إنها القيامة قد مرّت من هنا.

جئنا بستائر بلاستيكية من النوع الذي يستعمل لنصب الخيم، وأقمنا حواجز فصلت الصالة إلى قسم للرجال وآخر للنساء. ثم جيء لنا بأسرّة ميدانية من الحديد، فتحناها ونمنا. كان الجو حاراً والبقّ الطائر من البحيرة الراكدة يمصّ دماءنا. مع هذا كنت سعيدة لأنني أنام على سرير.

بعد الظهر، وصل أخيراً ممثل الشركة. أين أنت يا رجل؟ رحب بنا معتذراً وراجع أسماءنا، وأخبرنا بأننا سنبقى في ذلك القصر لبضعة أيام. علينا انتظار التعليمات التي ستحدد مكان كل واحد من المجموعة. ماذا وراءنا؟ كل ما أبحث عنه هو وسيلة لإرسال إيميلاتي إلى كالفن وجايزن.

أمضيت نهاري في قسم النساء واستمتعت بالشاور السَفريّ الذي سيصبح من الذكريات الجميلة. وكان الحمّام عبارة عن ستارة مربعة ندخل إليها، بالدور، وبيد كلّ منا الصابونة والإبريق لكي نغتسل بماء نغرفه من سطل كبير. وبسرعة تعلمت كيف أُكوّم ثيابي الوسخة تحتي وأدعكها

بالقدمين. استحمام معطوف على غسيل. وغداً سأتعلّم ثلاثة أو أربعة أعمال في واحد.

لم أشعر، ذلك المساء، برغبة في التجوال في القصر. الدمار لا يغريني بالاستكشاف. وليس هناك سوى أسرّة حديدية مبعثرة للجنود. وكنت ألبس مثلهم لكنني لم أتعوّد، بعدُ، الاختلاط بهم.

ذلك اليوم انتهى، رغم كل شيء، بمفاجأة صغيرة. فعندما جاؤوا لنا بالعشاء قرأت على الأكياس أنه من مطعم سميراميس في حي الدورة. وعرفت من الشاب الذي أتانا بالكباب أنه مطعم يملكه آشوريّ. أهلاً وسهلاً بأبناء العم!

في اليوم الرابع، بعد أن وصلت أرواحنا إلى أُنوفنا، جاء الميجر الوسيم ومعه التعليمات المنتظرة. قال بأننا جميعاً سنُرسل في قافلة عسكرية إلى تكريت.

- تكريت؟ مدينة صدّام؟ صدق كذب؟ هذا شلون جانص أعور!

من بين كل أفراد المجموعة، لم تشعر رلى اللبنانية وفادية المصرية بالمفاجأة وهما تتلقيان خبر نقلنا إلى تكريت. لم تكن أيّ منهما قد سمعت بالمدينة من قبل، ولا تعرفان ماذا تعني لدى العراقيين. وبينما كنّا، جميعاً، نتذمّر ظلتا هادئتين. ولم يلتفت الميجر لاحتجاجاتنا. كان يعرف أنها جعجعة من طرف اللسان. ما من جنديّ إلا يشعر بالأهميّة حين يرسل للخدمة في تكريت، المدينة التي ترفع أبناءها إلى السماء، حين تشاء، أو تخسف بهم الأرض إلى جهنم.

طلب منا الميجر أن نكون جاهزين. لممنا أغراضنا وجاء جنود حملوها

ورموا بها في شاحنتين وغطّوها بشادر. وصعدت إلى مؤخرة إحدى الشاحنتين، وركب معنا ثلاثة مسلحين وسارت أمامنا عربة مصفحة ووراءنا عربتان، تبرز من فوهة كل عربة خوذة ومدفع رشاش.

كان الهواء الساخن المتسلّل من فجوات الشادر يضرب وجوهنا والغبار يكوي الأعين. لكنني كنت أريد أن أرى كل شيء. وقد رأيت، ونحن نعبر جانباً من بغداد، حطاماً لم أر مثله من قبل. بلى... إن هذه المباني المحترقة المتداعية التي تصفر فيها الريح تشبه الرماد الذي هطل على نيويورك بعد ذلك الحادي عشر الأليم من سبتمبر. ألمٌ يقابل ألماً وخراب يقود إلى خراب. هذا ما كنت أتصوّره وأنا في تلك المرحلة المبكّرة من سذاجتي.

- هذه سامراء!

خرجت صرخة عفويّة منّي حين لاحت في الأُفق المئذنة الملويّة. تذكرت تاريخي الخاص في هذا المكان. السفرات المدرسية وبنات السادس الابتدائي بالضفائر والشرائط البيض وحلقات الرقص على أغنية «يا يمّة انطيني الدربين»، ونظرات ماسور مادلين، الراهبة الفرنسية التي تقوم بوظيفة برج المراقبة، ولفائف البيض والعنبة المغلّفة بورق الألمنيوم.

ألهذا السبب ظلت تلك الأيام فضيّة في ذاكرتي؟

تماسكت في مواجهة جيش الحنين، وتصنّعت ابتسامة لاهية وأنا أُشير إلى الملويّة، وأقول للجالسين بجانبي: «لقد ارتقيت كل تلك الأدراج وأنا دون العاشرة... ارتقيتها حتى القمة». كانت صور طفولتي تنثال على وجهي مثل زخّة مطر حارّ يكوي ولا ينعش. أتفرج ببلاهة السيّاح على الأعرابيات حاملات السلال فوق الرؤوس وهن يتوقفن للفرجة على موكبنا، ممسكات بأطراف عباءاتهن أمام وجوههن. وجوه تصعب قراءتها، بخلاف وجوه

الأطفال الذين كانوا يلوحون لنا بأذرع سمراء نحيلة أحرقتها الشمس.

لم أكن قد فكّرت كيف سيستقبلنا العراقيون. لكن ما رأيته في القنوات الأميركية لم يكن محبطاً. هذا شعب متحمس لتغيير النظام، يحلم بالحريّة ويرحّب بقدوم الجيش الأميركي. لماذا، إذاً، تطفح العيون السود البارزة من شقوق العباءات بكل هذا الصدّ؟ نظرات لا تعكس أُلفة ولا فرحاً. كأن الحزن بؤبؤها. كيف ستكون أيامي المقبلة في البلد الذي لم يعد يعني لي أكثر من أنه حاوية لعظام الأجداد؟

لا أذكر كم ساعة استغرقت سفرتنا على الطريق الخارجي المسمى «درب الموت». وكنّا نشعر بالخطر عندما يسرع السائق، فجأة، ونحن نجتاز بلدة مأهولة أو تقاطعاً كبيراً. ولم يكن الموكب يبطئ السير مهما كان السبب إلى أن بلغنا تكريت. انعطفنا إلى الشوارع الداخليّة ولاحت أمامنا منطقة تمركز القوات الأميركيّة. طريق زكزاك وعوارض كونكريتية أمام السياج الخارجي للمعسكر.

ومرّة أخرى، كان الأطفال يلوّحون لنا بينما كانت نظرات الرجال تحاصرنا، مفعمة بالشك والنفور، وكأن لسان حالهم يقول: «ها هم الأوباش قد جاؤوا»!

لم تسعفني قواي في القفز من اللوري المترب. اهترأت مؤخرتي وتضعضعت كلّ عظامي من المقعد الخشبي الصاعد والنازل مع مطبات الطريق. وتقدم الجنود، في حركة استثنائيّة، لمساعدة النساء في النزول وحملوا أغراضنا إلى الداخل.

لم يكن الداخل سوى قصرٍ آخر من قصور صدام.

X

زين... زيّونة حبيبتي... زوينة... زُنزُن... زينة البيت...

تجتهد جدّتي رحمة في ابتكار المسمّيات وكأن لديها، تحت لسانها ، عصفورة ماكرة تلهمها عبارات التدليل والتدليع والنغنشة.

كأن هناك، في الجيب العميق لروبها المنزلي، آلة دوّارة تفكك الحروف المعقدة لكلّ عبارة، وتطحنها لكي تعجنها من جديد في قوالب صغيرة ولذيذة أيسر هضماً. وهي عندما قالت لي، ذلك النهار، إن طاووس ستأتي لزيارتنا، أدركت أنها تقصد تلك المرأة السمراء الطويلة، نصف المسترجلة، التي كنا نتمرغ في حضنها، أنا وأخي يزن، وهي تأتينا من بيتها البعيد في مدينة الثورة وبيدها السميط والسمسميّة.

هل كانت طاووس، التي يسمونها خارج البيت أُمّ حيدر، من قريباتنا أم مجرد صديقة من صديقات والدتي؟

ترمقني جدتي بزاوية عينها وكأنها في حيرة من غبائي المستورد. هل يعقل ألا أذكر طاووس الخياطة التي تربطها بنا عشرة عُمر؟

- كل هدومنا ونفانيفنا ودشاديشنا وبرداتنا ووجوه مخاديدنا طلعت من بين يديها.

هكذا تختصر جدّتي بطاقة التعريف بالزائرة التي تأتي كل ثلاثاء لكي

تساعدها في شؤونها. شؤون تعجز عن الإلمام بها أحدث موسوعات المعارف العالمية. ترقيع الستائر المهترئة، ترتيب حاجيات العجوز في الدولاب، نزع أغطية الوسائد وغسلها وإعادة تلبيسها، كيّ الشراشف ومفارش الطاولات، قطف ثمار النارنج وعصرها وتعبئتها في القناني، تكتيل أقراص الكبة وسلقها «نصف ستاو» وتجميدها، خلط مسحوق الحناء في الطاسة الفافون، وصبغ شعر العجوز بحجة أن النبتة تطرد الصداع، حفّ حاجبيها وشاربها بالخيط، رش دواء الصراصير في الزوايا وبالوعة الحمّام، شطف الطارمة وسطح الدار ومسح الدش من الغبار المتراكم عليه لئلا يشوّش التقاط الفضائيات، تبخير حجرات البيت بأعواد خشب الصندل، جمع الزيتون من الحديقة، في موسمه، وتمليحه ونشره في صوانٍ من الخوص تحت الشمس، حشو الباسطرمة في الصندويلات وتعليقها على حبل في مجرى الهواء... وأعمال كثيرة غيرها أتقنتها هذه المرأة القويّة الجسم على مدى عقود من رفقتها لجدّتي.

حين سمعت طاووس لفظة صندويلات، لأول مرة، تصورت أن المقصود كان صوندات شطف السطح وسقي الحديقة، أو ربما كانت نساء البيت يتحدثن عن الصندالات، أي تلك النعال الخفيفة التي يلبسنها في الصيف. كيف كان لها أن تعرف أن الصندويلات، بلغة أهل الموصل، هي مصارين البقر الواسعة التي تحشى بخليط اللحم والثوم والبهارات لعمل الباسطرمة؟ وحتى بعد أن عرفت المعنى فقد ظلت تقرف منها و تلفظها سندويلات، وكأنها بتخفيف حرف الصاد تصدّ شيئاً من رائحتها. ولعلها وجدت شبهاً بينها وبين السندويشات، تلك التسمية الأخرى العجيبة التي لم تكن طاووس تأمن لها.

- كنّا أيامها في الموصل الخضراء أمّ الربيعين. بعد أن جعلها المدّ الشيوعي حمراء. وكنّا سندفع حياتنا بسبب الصندويلات.

تعجبني جدّتي رحمة وهي تدلي بآرائها في السياسة وكأنها من خبراء الستراتيجيا أو من معلّقي السي.إن.إن. تقول «المدّ الشيوعي»، تقول «لعبة أمريكية»، «مؤامرة صهيونية»، «فرهود اليهود»، «حركة رشيد عالي»، تقول «انقلاب مصدّق»، «دهاء نوري باشا» الذي كان يعتقد أن «دار السيّد مأمونة»، «خطّة كيسنجر»، «كاريزما عبد الناصر» ... حتى الكاريزما تعرفها رحمة!

- فتحت لنا أُختي غزالة تلفوناً من البصرة، قبل العيد الصغير بأسبوع، ويبدو أنني رددت عليها بصوت تعبان فسألتني عما يشغلني، وقلت لها إنني هلكانة بعد أن عجنت خمس كيلوات طحين للكليجة ونظفت الصندويلات وجهّزتها للحشو.

في الليلة نفسها راح رجال الأمن ودقّوا على بابهم وقلبوا البيت عاليه سافله. ولما لم يجدوا شيئاً أخذوا أعمامي الاثنين معهم إلى أحد مقراتهم الخفية. أشبعوهما ضرباً... وقل لي وين يوجعك حتى أخدمك. أرادوا منهما أن يعترفا بالمكان الذي خُبِّئت فيه البنادق والرشاشات، تلك التي رمزت نساء البيت لها بالصندويلات وهن ينقلن الرسائل المشفرة في التلفون. «هل تتصورون أن الثورة غافلة عن أعدائها؟».

أضحك وتضحك معي جدّتي وهي تحكي لي كيف عاد رجال الأمن إليهم، في اليوم التالي، وتوجهوا إلى الثلاجة فوراً وبحثوا فيها وبعثروا الطماطة وكسروا قناني الماء ثم صرخوا في النساء : «وين الصندويلات يا قحاب؟». وأشارت زوجة عمي، وهي أشجع زلم البيت، بيدها إلى

قطع الباسطرما الحمراء المرصوصة المعلّقة في حبل يمتد فوق رؤوسهم ورائحة الثوم والبهارات تفوح منها وقالت: «هذي هي... جوعانين؟ أقلي لكم طاوة منها وأطقّ لكم عليها بيض أبو صفارين؟».

تمسح طاووس الدموع التي سالت من عينيها من كثرة الضحك، وتنفض زيق دشداشتها مع التمتمة التي لا بدّ منها:

- إن شاء الله خير يا ربّي.

وتمسح جدّتي بيد راعشة على شعري وكأنها ترجو أن تعيدني تلك الحكايات العائلية إلى صفّها. هذه عجوز لا تتراجع، ويبدو أنها تسعى لطبخي على مهل. تغرف من خزّان حكاياتها وتروي لي ما يسقي شجرة جذوري ويحرّك أغصان انتمائي. تمدّ أصابعها وتفرك جبيني مثلما كانت تفعل معي وأنا طفلة، لكي تطرد الفزّة بعد حلم مزعج. تفرك بقوّة لكي تطرد الروح الشريرة التي تلبّستني وأعادتني إليها على غير صورتي وما تشتهي.

- زوينة حبّوبتي... هل هناك بلد على هذه الأرض، غير بلدنا، يتسلّى أهله بذكريات القهر وهدّ الحيل؟

XI

سألني كالفن وهو يعتصر علبة البيرة بأصابع يمناه ويحيلها إلى معدن مطعوج:

- برأيك، يا زاينا ما هو أعظم اختراعات القرن العشرين؟

يستطيع كالفن أن يأتي على علبة البيرة المثلجة بجرعتين لا ثالثة لهما. يفتح العلبة متلذذاً بصوت المعدن المتصدّع وينهل منها الجرعة الأُولى. جرعة طويلة من عدّة شفطات متتالية. يبتلع المشروب الفوّار ثم يطلق فحيحاً أفعوانيّاً. أراه يقلّد الممثل الوسيم ذا اللحية النابتة في إعلان البيبسي. وكالفن وسيم أيضاً، في عينيّ على الأقل. وقد حاولت أن أترجم له المثل العربي عن القرد الذي في عين أمّه غزال، لكنه واصل التحديق بي، بدون أن تختلج في وجهه عضلة وقال إنه يعتبر القرد، بالفعل، أجمل من الغزال.

لا تنفرني منه واقعيته وافتقاده إلى الخزعبلات الشرقية التي تثقل جيوبي. لا أتضايق من ثقل دمه ولا شعره الأحمر الخشن ولا النمش الذي يرقّط أنفه وأعلى ظهره. يعجبني كالفن هكذا، كما هو وعلى قليل ما يملك. فلو كان رومانسياً، مخاتلاً، على شيء من الأريحية وذا شعر سرح قاتم لتولّهت به حباً وتركت الدنيا وبركت عند قدميه. وأنا أخشى الحب الذي

يصل حدود الوله وأتحاشاه لكي لا أفقد دفّة روحي. روحي التي ليس لي من سميرة سواها في عمري الذي أراه يجري بلا طائل.

أقعد في الشرفة وأتأمله ممدداً على أريكة البامبو وأشعر بأنه رجل المرحلة. يكفيني منه اليوم هذا الذي يمنحه لي. أما الغد فهو، حسب سكارلت أوهارا، يوم آخر.

- قل لي أنت، أولاً، ما هو الاختراع الأعظم بالنسبة لك؟

- هل تريدين أن تعرفي ذلك حقاً؟

- نعم، هات ما عندك...

ينهض من رقدته ويدلف من الباب المشرع والمثبت بحصاة كبيرة. بخطوة واحدة من ساقيه الطويلتين يصل كالفن إلى البراد ويعود بعلبة بيرة ثانية. شبخة للذهاب وشبخة للإياب. هكذا نصف بلهجتنا طريقة كالفن في السعي لطلب البيرة. ولن أُحاول أن أترجم له الشبخة، إذ لا طاقة لي على ما سيتبع ذلك من متتاليات. فهو سيطلب مني أن أعيد لفظ المفردة بالعربية. ثم سيحاول نطقها بأسلوب التهجئة، مقطعاً مقطعاً، وبعد ذلك يهزّ رأسه بدهشة مصطنعة وهو يكرر الكلمة مسروراً بفصاحته. وأخيراً سيستلّ المفكرة الصغيرة من جيبه ويكتب «شبخة» بالحرف اللاتيني ويضع، في مقابلها، شرحها.

- إمسكي أعصابك، يا عزيزتي. أظنّ أن الريموت كونترول هو اختراع القرن.

- لا يدهشني ذلك منك أيها الكسول... يا تنبل...

أقولها بالعربية وأحشر سبابتيّ في أُذنيّ لكي يفهم أنني لست في مزاج

يسمح بأن أشرح له الكلمة الأخيرة. يهزّ رأسه طائعاً ويشرب نصف العلبة في جرعة أولى ويصدر فحيحه المعتاد ثم يرمقني متحدياً:

ـ هيه زاينا... إنه دورك... ما أعظم اختراعات القرن العشرين؟

ـ ها ها ها ... النارجيلة!

ـ إنها من اختراعات القرن التاسع عشر... قبل ظهور التكنولوجيا.

ـ لا يهمّ. يكفيني أنني اهتديت إليها قبل أن تنقرض...

يأتي على ما بقي في علبة البيرة ويفحّ سعيداً وهو يعقّب على اختياري:

ـ كنت أتوقع منك أن تختاري اللابتوب.

لم يكن لابتوبي يفارقني. ورغم تلاصقنا، لم أشعر بضرورته الفائقة إلا وأنا في العراق. ولو خيّروني بينه وبين السترة الواقية من الرصاص لاخترته دون أن يرفّ لي جفن. وعلى الصفحات البيض المضيئة لذلك الكومبيتر الصغير، على الشاشة المحاطة بلون أزرق سماويّ، كنت أسجلّ، ليلة بعد ليلة، وقائع أيامي في ذلك البلد الذي يتشبث بي من خناقي. هنا خضت جهادي الخاص وتركت العنان لنفسي أن تذهب إلى التخوم الخطيرة للوله.

أهذا، يا روحي، ما يسمونه الغرام؟

XII

كم تملك العينان البشريّتان من فضول ومن نهم للرؤية؟

كانت عيناي جمرتين مشتعلتين بالغبار، وجفناي يتقلّصان ليتمكنا من مواجهة شمس النهار. شمس خمّنت أنها بقوة ألف فولت. ومع هذا لم أهرع إلى الظل بل وقفت أُدير ناظري فيما حولي. كنا على تلّة مغطاة بالأعشاب وكان التمر في عذوق النخلات المتيبسة قد جفّ وتقلص وبات في حجم العنب الصغير.

هناك ألقت بنا الشاحنتان. تسعة وعشرون نفراً يقفون في ساحة قصر صدام في تكريت وأمام كل واحد منا أغراضه.

جاء عريف يحمل ورقة وبدأ ينادي علينا. وكل من يسمع اسمه يسحب حاجياته ويقف جانباً في انتظار الهمفي التي ستنقله إلى مقره. ولا أحد يرضى بمكانه والاحتجاجات كثيرة.

- لماذا جئتم بنا من بغداد إلى تكريت ما دمتم سترسلوننا إلى الناصريّة أو الكوت؟

وحتى الذين ألحقوهم بالحلّة أو الرمادي أو بعقوبة كانوا يتذمرون ويدمدمون وهم يتوجهون إلى السيارات التي ستنقلهم إلى مقراتهم. هل كان أحد يتوقّع رحلة إلى هاواي؟

داخ هرمز وشحب وجهه لأنه سينفصل عن المجموعة ولا يدري أين سيذهبون به. أما ذاك الجعنكي من أهل كربلاء فكان يقف جانباً يدخّن بصمت ويرمقنا بنظرات هازئة. إنه يسخر من مخاوفنا الصغيرة. وقد فهمت، فيما بعد، سرّ شجاعته. كان قد خدم في الجيش العراقي، قبل هجرته واستقراره في فيلادلفيا، وخاض حربي إيران والكويت، ومات الخوف في قلبه بعد أن رأى من الجثث ما لم تره أعيننا كلّنا مجتمعين. كيف جاءت صفة جعنكي إلى خاطري، أنا التي لم أستعملها منذ دهر؟

تمنّى كلّ منّا لو جاء تنسيبه في موقع آمن. تمنّى رشفة ماء بارد ومرحاضاً نظيفاً. وكانت حرارة الجو تزيد من عرقنا ودبقنا وخصوصاً أننا لم نستحمّ منذ أيام. أما من نهاية لهذه الرحلة؟ ولماذا يتعيّن علينا، نحن النساء الخمس في المجموعة، أن نتظاهر بالصبر والتحمّل أكثر من الرجال؟ كانت بيننا واحدة تجاوزت السبعين من العمر. لم تضع الشركة أي شروط أمام المتقدمين. ومهما كان عمرك أو دينك أو أصلك أو جنسك أو مستواك الدراسي فأنت صالح للمهمة ما دمت تتحدّث بالعربية والإنكليزية، حتى لو لم تكن تفكّ حروفهما.

قال السرجنت لرفيقتنا الأكبر سناً إن مقرها سيكون في بيجي. صاحت بهلع:

- Where is that?

ردّ عليها بتهذيب:

- Mam, they will take you.

وهناء، المولودة في عقرة، أرادت أن يكون عملها هناك، قريباً من

عشيرتها. لكن القائمة التي في يد السرجنت ساقتها إلى العمارة. ولما قيل لي إنها ستعمل في الحلّة ردت بنزق:

- لن أذهب إلى الحلّة. وإذا لم أنزل في فندق ببغداد أو في الغرين زون سأعود إلى أميركا.

بدون مناقشة، قال بنبرة حاسمة:

- مام، سنضعك في أول قافلة عائدة إلى بغداد لتأخذي الطائرة إلى هناك.

فيما بعد، عرفت أن رفيقتنا اللبنانية عادت ولم تكمل المهمة. وسرعان ما لحقت بها المصرية. أما أنا فقد نودي على الجميع بدون أن يظهر اسمي في القائمة، وبقيت واقفة بعد أن تفرق رفاق الرحلة، كل إلى منطقته.

إقترب مني السرجنت وسأل:

- أنت زينة؟

- يس سير.

- ستبقين هنا، لهذا لم أُناد اسمك.

إذاً، فقد كانت تكريت هي مصيري. أعود بعد خمسة عشر عاماً من الغياب لأجد نفسي في عقر دار الدكتاتور الذي جئنا لإسقاطه. إنه فيلم «لا وحش في المدينة».

ترجلت من الهمفي التي نقلتني إلى موقعي، وكانت الشمس توشك أن تغيب. وقفت وأدرت ناظري في المنطقة بمحور ١٨٠ درجة، مثل كاميرا تتحرّك من اليسار إلى اليمين. أحصيت ما لا يقلّ عن اثني عشر قصراً، أكبرها هو الذي أقف أمام بوابته. كان مشيّداً بنوع من الحجر الفاتح، وعلى

كل حجرة في الجدار الخارجي حُفر حرفا صاد وحاء. صدام حسين.

بهرني الرخام الذي يغطي الأرضية بألوانه الوردية والفستقية والبنفسجية. دخلت ورأسي إلى فوق أتأمل الجدران العالية المغطاة بالخشب المقرنص والسقوف التي تتدلى منها ثريات يتلامع كريستالها. كانت هناك صالة استقبال فسيحة جداً، ما زالت فيها من مخلفات ساكني القصر بضع أرائك على الطراز الفرنسي، لوي كاتورز وغيره. لكن قماشها كان قد اهترأ وخشبها تضعضع. أبهذه السرعة؟

أخرجت الكاميرا الصغيرة من حقيبتي وطلبت من أحد الموجودين التقاط صورة لي وأنا أجلس في حضن واحدة من الأرائك المذهبة، رافعة ساقي على المسند. الفحش من لزوم الموقف، وهي أول صورة لي في العراق الجديد. لم يكن يزعجني التفكير بالمؤخرات التي جلست قبلي على هذا المقعد، وكيف كانت هذه القاعة تحتشد بسيّد الدار وضيوفه. تصوّرتهم مجموعة من المنافقين والفاسدين المتشبثين بالحكم... بأسنانهم.

كان قصراً واسعاً لكنهم لم يجدوا لي غرفة أنام فيها لوحدي. يبدو أنهم توقعوا وصول مترجم لا مترجمة. تداولوا في أمري وأنا جالسة على عرش مذهّب أنتظر النتيجة. ثم أخذوني إلى حجرة تقع بين القصر الكبير وبيت الحرس، وهو قصر أصغر، وكانت الحجرة التي خصصت هي مطبخ القصر الصغير.

تطلعت بهلع إلى صناديق المؤن وأكوام المعلبات ولم أدر أين أضع قدمي. وجيء بجنديين لنقل المؤن إلى مستودع آخر وأمضيت المساء وأنا ممسكة بالصوندة، أغسل الأرضية بالماء والصابون إلى أن رأيت البلاط

المرمري الأصلي يستعيد لونه ولمعانه. وهكذا أصبح مطبخ الحرّاس غرفتي الخاصة في قصر صدام.

فتحت الحقيبة الخضراء الكبيرة وبدأت بترتيب ثيابي في خزانات الطعام، وحاجياتي الأخرى في جوارير الصحون والمعالق. وعاد الجنديان بسرير حديديّ وفرشة وبطانية وتمنيا لي ليلة سعيدة.

نمت مثل قتيل.

XIII

أنهت رحمة صلاتها الصباحية أمام صورة العذراء العجائبية المؤطرة بالفضة والموضوعة إلى يسار سريرها. ورحمة تعبد ربّها عبادة لا تلائم شخصاً سواها، ويمكن القول إنها تبرمجها حسب مزاجها ومشاغلها وحالتها الصحية، بل وحسب مجيء الكهرباء أو انقطاعها... بحيث لا تتقاطع مع المسلسلات.

وهكذا فإن الصلاة الصباحية قد تصبح مسائية، خصوصاً إذا كان التلفزيون أبكم. وعندها فلا بأس من أن تتلوَ «السلام عليك يا مريم» وهي تفرك كفّيها المتيبستين بالروماتيزم بدهن اللوز. وإذا وجدت رغبة في إطالة الصلاة فلا بأس من من أن تنحني في جلستها على الفراش الممدود فوق لوح خشبي، وتدهن قدميها السورياليتين اللتين ركب إصبعاهما الكبيران فوق الإصبعين المجاورين.

طقسها كان من اختراعها. وهي قد استيقظت في ذلك الصباح ووجدت الكهرباء حاضرة فسارعت إلى تشغيل آلة التدليك الكهربائية وراحت تصلي وهي تمرّر الآلة في حركة دائريّة على ركبتيها. « يا عذراء مريم، يا أُمّ يسوع الحبيب، إحفظي لي ما بقي من حيلي ولا توقعيني. أنت صديقتي وحليفتي الطيبة ورفيقتي في وحدتي، من أشكو لها فتسمعني، ومن أدعوها

فتستجيب، ومن أقرع بابها فتفتح لي. إرحمي يا حنونة موتاي وباركي أولادي وأحفادي ومن بقي من أحبّتي: كامل وسهام وأبنائهما في نيوزيلندا: جمّولي وسنسن وتمارة والصغير الذي لا أعرف كيف ألفظ اسمه، وبتول وزوجها في أمريكا وولديهما يزن وزينة، وأبناء أخي المرحوم داوود: لقاء وسعد في سوريا، وسامر في دبي، ويوسف وصباح ورويدة في كندا، واحفظي لي أختي غزالة في الأردن وأبناءها وأحفادها في السويد ولندن ولا أدري أين، وطاووس أمّ حيدر وابنيها حيدر ومهيمن وبقية أولادها، وجيراننا الذين على اليمين، والذين على اليسار إلى ثالث بيت، وصالح البستانجي. ويا مريم لا تدعي حسّون أبو البريد يتأخر عليّ ولا على أهل المحلّة، ولا تنسي كل الذين نسيتهم ولم أُسمّهم لكنك تعرفينهم واحداً واحداً... آمين».

جمدت حركة الآلة فصاحت العجوز تنهر الصورة ذات الإطار الفضي:

- ليش يا عذرا؟ هل كثير عليك أن تبقي الكهرباء خمس دقائق زيادة حتى أنتهي من الماساج؟

حاولت أن تبحث في رأسها عن القديس المكلّف بقضايا الطاقة فلم تتذكّر. فهي حريصة على ألا ترهق العذراء مريم بقرع بابها في كل صغيرة وكبيرة لذلك تتوجه، مباشرة، إلى القديس أو القديسة المعنية بالمشكلة. وحين كان الأبناء في البيت فإنهم كانوا يتندرون على أسلوب ماما رحمة في «تشغيل» القديسين العاطلين وإلهائهم دائماً فلا يضجرون من الجلوس فوق الغيوم وهم يعتمرون الهالات المضيئة حول رؤوسهم. كان أبناؤها يضحكون وهم يستعيدون ما يسمونه بالتشكيلة الوزارية لحكومة الرئيسة

رحمة: القديس أنطونيوس للعثور على الحاجيات المفقودة، والقديسة ريتا شفيعة القضايا المستعجلة، وبرناديت سوبيروس لشفاء المرضى، ومار يوسف للتعجيل بنمو زنابق الحديقة، وتيريزا دليلة الطرق الصغيرة التي تقود إلى نتائج كبيرة.

ثم حدث أن تعرفت رحمة على معالج قبطيّ عمل في العراق، وكان يزورها لجلسات العلاج الطبيعيّ. وبفضله تمكنت من توسيع وزارتها وأضافت إليها القديس كيرلس شفيع الطلبة في الامتحانات، ومار جرجس لطرد الشياطين، وأبولونيا لعلاج وجع الأسنان وقد تنفع أيضاً في آلام المفاصل، وبطرس شفيع الصيادين وباعث الرزق الوفير... وهلمّ جرّاً.

تذكّرت رحمة القديس كريستوف شفيع المسافرين وطفرت دميعة سهلة من عينها. «لماذا تطشّر أهالينا في بلاد الله الواسعة يا ربّي؟». كانت تشتاق إلى أبنائها المهاجرين ولا تغفر للزمان الذي جعلها تنتهي وحيدة في البيت الكبير، كأنها تعيش عمراً زائداً لا طائل من ورائه. فلو كان القدر رحيماً بها لسلب روحها في اللحظة ذاتها التي لفظ فيها زوجها يوسف أنفاسه.

كم كانت محقّة عندما اعتادت أن تقول له، في كل مناسبة: «إن شاء الله يومي قبل يومك يا رجّال». ولم تكن تعرف أن التخت الخشبي العريض الذي جمعهما تحت لحافه لسبعة وخمسين عاماً سيصبح كبيراً عليها، فجأة. إنها تنقم عليه، حين يضيق خلقها، لأنه راح وخلاّها، وتنقم على العذراء والقديسين الذين يتأخرون في الامتثال لمُرادها، وتشتم الأولاد الذين تركوها وهجّوا، وتذرف دمعتها الروتينية الجاهزة دائماً وأبداً، ثم تمخط في منشفة صغيرة وتقوم إلى المطبخ.

لم تكد رحمة تمسح دمعتها، ذلك الصباح، بعد دقائق من انقطاع الكهرباء، حتى رنّ الهاتف الأخضر الرابض في مكانه قرب السرير، وجاء صوت بتول تتكلم من ديترويت. تتكلم وتقول شيئاً غير قابل للتصديق. هل تمزح ابنتها معها في لحظة حبور أم أنها تريد مسايرة أوجاعها وتصبيرها عليها؟

ورحمة، التي نصبت في غرفة نومها ركناً يشبه كنيسة صغيرة للصلاة، لم تشكّ يوماً في أن القديسة مريم لا تتأخر في إجابة طلباتها، لكن أن يكون الجواب واقفاً خلف الباب فهذا ما لم يحدث من قبل. لذلك عندما قالت بتول إن ابنتها زينة «عندها شغل» في العراق وستسافر إلى بغداد بعد أيام، لم تتمالك الجدّة نفسها وهلهلت بصوتها الذي لم يفقد جرسه الشاب، وتطلعت إلى الصورة العجائبية وصاحت: «أبوس يدك يا عذرا على هذه البشراويّة».

XIV

لو لم يكن الكولونيل بيترسون ضابطاً ضمن قواتنا في العراق لكان جنى الكثير من العمل ممثلاً في هوليوود.

دخلت للتعرّف عليه، في صباحي الأول في تكريت، ولكي أتسلم عملي. وجدت نفسي أقف أمام عملاق خمسينيّ وسيم عريض الحاجبين مقلوب الذقن، ذي شعر قاتم تلتمع فيه شعيرات بيض جذّابة. شيء مثل بيرت لانكستر في فيلم «من هناك إلى الأبد».

وقف العقيد وصافحني بكفّ طرية منتفخة مثل وسادة طوارئ وهو يقول:

- جئت في وقتك.

كان لديهم مترجم ويحتاجون، على وجه السرعة، إلى ثانٍ لسبب فهمته فيما بعد. كانوا قد داهموا، في ليلة سابقة، قصراً يعود لزوجة صدام وعثروا فيه على وثائق عديدة وهويات ومبالغ مالية. وهم يريدون قراءة كل شيء.

أدخلني الكولونيل إلى غرفة مجاورة فرأيت في وسطها طاولتين مغطاتين بالمجوهرات والحلي البرّاقة. هذه هي مفاجآت المهنة. كأنني لدى صائغ في سوق الذهب في دبي. وقع نظري على كومة أوراق مكتوبة بالعربية، تصفّحتها فوجدت بينها شهادة الجنسية العراقية الخاصة بزوجة صدام.

كانت تحمل صورة لها وهي شابة بشعر أسود كثيف وأنف مرفوع. وإلى جوار الصورة كتب اسمها بحبر أزرق سائل: ساجدة خيرالله طلفاح.

سرت قشعريرة باردة في ظهري وأنا أتخيّل الأصابع التي تلمّست هذه الورقة قبل أن تصل إلى يدي. ليس هذا وقت القصائد. تمالكت نفسي وقلت للكولونيل إنها جنسية زوجة الرئيس. فأخذها ووضعها في مغلف وكتب عليه شيئاً بالإنكليزية. ثم سار أمامي لكي أدور إلى الجانب الآخر من المنضدة، والتفت نحوي وأشار إلى الأرض فاتحاً يديه مثل ساحر يقدّم نمرة مثيرة. كان ينظر إليّ لكي يرى وقع الصورة.

واو! رأت عيناي أكداساً من أوراق المئة دولار. ضبّات كثيرة جديدة ومرزومة وكأنها خرجت للتوّ من بانك أُوف أميركا. كانت الرزم مصفوفة بانتظام وبارتفاع قدمين. صحت رغماً عنّي:

- Oh my God!

وانحنيت عليها وأنا أهمّ بتناول إحداها، لكنني سحبت يدي قبل أن ألمسها ونظرت إلى الكولونيل أستأذنه إن كان في إمكاني تفحّصها فهزّ رأسه مشجعاً:

- Sure, go ahead.

لعل الضبّة التي حملتها في يدي كانت عشرة آلاف دولار. لا أدري لأنني لم أر في حياتي مبالغ بتلك الكميّة... ولا في أكبر كازينو في لاس فيغاس. هذه دولارات وليست فيشاً.

- هل هي نقود حقيقية؟

- طبعاً.

ـ ألا تخافون من أن تسرق؟

شعرت بسخف سؤالي حالما غادر لساني وما عاد يمكن تداركه. لا، لم أقصد ولم يدر في بالي مطلقاً أنّ يد أحد جنودنا يمكن أن تمتد إلى هذه الأموال، أنا مثلاً، لو حدث وعثرت على ثروة في إحدى خزانات المطبخ الذي أنام فيه فإنني لن آخذ لنفسي منها فلساً. وسبق أن مررت بتجربة في متجر ماكس في ميامي كانت اختباراً لي. كنت يومها أتفرج على الحقائب الثمينة ووجدت على الرف محفظة نقود نسائية سمينة. تصوّرتها، في البداية، من البضائع المعروضة للبيع. ثم أدركت أنها مستعملة ولا بدّ أن أحداً نسيها هناك. وفتحت المحفظة ووجدت فيها ألفاً وخمسمئة دولار من فئة المئات والعشرينات. لم أحاول أن أتستّر عليها أو أدسّها في حقيبتي وأخرج مسرعة من المكان. أخذتها، بشكل طبيعيّ، إلى حراس المتجر وأخرجت الهوية الموجودة في داخلها وطلبت إليهم أن يتصلوا بصاحبتها أمامي... كنت أريد أن أتأكد من إعادة محفظتها إليها.

لست نزيهة إلى حدّ البلاهة. فلو كنت سائرة في الشارع وعثرت على مئة دولار فلن أقف وأصيح: «هذا مال من؟». كنت سأضع الورقة في جيبي وأنا مسرورة بالهديّة غير المنتظرة. لكن رؤية ستة ملايين دولار مكدّسة تحت قدميّ في غرفة مغلقة، وأين؟ في تكريت، ذلك ما يسمّى، بتواضع، تجربة جديدة في الحياة.

بجوار رزم الدولارات كانت هناك رزم كثيرة مكدسة بدون تنظيم. دنانير عراقية وباوندات ويوروات. قيل لي إنهم أحصوها وجمعوا وضربوا ووجدوا أنها لا تقلّ عن الثلاثة ملايين دولار.

- انظري إلى هذا...

كان أحد العساكر الذين يتولون عملية الجرد يحمل سلسلة يتدلى منها قلب ذهبيّ كبير. تناولته وفتحته فوجدت على فلقته اليمنى صورة صدام، وعلى اليسرى صورة زوجته. ولم يكن الجرد قد انتهى. ولم تكن أخبار تلك المضبوطات قد وصلت، بعد، إلى الصحافة.

كنّا في أيار ٢٠٠٣.

XV

ما زالت رنّة صوتها تكمن في أُذني اليمنى وأنا أُكلّمها بالهاتف من تكريت، بعد يومين من وصولي إلى العراق.

- زيّون عمري وين أنت؟ بعدك في عمّان؟ متى تصلين عندنا عيوني؟

خرست حنجرتي. تلعثمت في الكلام. لم أدر كيف أرمي لها الخبر. هل ستفرح أم تقلبها مناحة؟

- أنا في تكريت. لا يبقى بالك. أشتغل مترجمة في شركة للمقاولات وسأزورك حال السماح لي بالسفر إلى بغداد.

- يا مقاولات بهذي الأيام السود؟

- شركة كهرباء يا جدّتي... ينصبون محطات جديدة بدل التي قُصفت في الحرب.

- لا أُصدّق أنك هنا، في العراق. إتصلي بي يا قلبي كلّ يوم... كلّ يوم، زين؟

كنت أسمع أن جدّتي رحمة واعية ولا تفوتها فايتة. «مفتّحة باللبن». لكني لم أختبر ذلك إلا في الاتصال الثاني بها. فهي حالما سمعت صوتي ردّت بنبرة حازمة:

- إسمعيني زين يا بنتي. لم يهدأ فكري منذ تلفون البارحة. أُريد أن أجيئك إلى تكريت، لن أصبر أكثر.

- لكن الشركة تمنع الزيارات...

- فهمت. لا تكملي. أنت تشتغلين مع الأميركان، مو هشّكل؟

قاطعتني بفزع أمّ شرقيّة تشكّ في أن ابنتها البكر حامل وستلوّث شرف العائلة. وكان في نبرة صوتها خسفة جعلتني أتخيّل أن قلبها سيتوقف لو أخبرتها بالحقيقة.

كذبت على جدّتي رحمة، وما كان في يدي غير ذلك. قلت لها إنني مندوبة من الأمم المتحدة لمراقبة المهمات التي يقوم بها الجيش الأميركي في أوساط المدنيين العراقيين. وشعرت كأن روحها عادت لها وهي تسمعني، أو كأنها كانت تريد أن تكذّب يقينها وتصدقني، ملتقطة الخيط الواهي الذي مددته إليها. وسمعتها تسألني بلهجتها الموصلية التي تضاعف من خطورة الأمور:

- يعني ممّن تاخذين راتبك يا بنتي؟ من بوش لو من كوفي عنان؟

كدت أقول لها إن الجيب واحد والشكليّات لا تفرق كثيراً. لكنّني طمأنتها وواصلت نسج كذبتي المهلهلة، وأكّدت لها أن دورنا ضروريّ في منع تجاوزات الأميركان على العراقيين.

خشيت أن تطلب منّي، كعادة أمّي: «إحلفي براس بابا». لكنها لم تقل. إنه القسم الوحيد الذي يوقعني في الفخ.

بعد يومين وصلت جدّتي إلى قاعدتنا في تكريت. قدّمت نفسها للمترجم الخارجي. أرسل لي ورقة تخبرني بأن رحمة فتوحي تطلبني

عند البوابة. كان عليّ أن أستبدل، على عجل، ببزّتي العسكرية ثياباً مدنية وخرجت أهرول إليها ورأيتها تقف في الصف الملاصق لجدار القصر، الدور المخصص للنساء اللواتي يتجمعن أمام البوابة، كل يوم منذ الصباح الباكر، للسؤال عن زوج اختفى، أو لتقديم شكوى أو لطلب تعويض. وبسرعة أشرت للمترجم أن يأتي بجدّتي إلى غرفة الحرس.

تركت نفسي لها، تشمّني وأشمّها ونتعانق ونبكي والجنود يراقبوننا بتعاطف، والمترجم العراقي يمسح عينيه بظاهر كفّه. لكنها رفضت الدخول إلى المعسكر وهزّت رأسها هزّة لا رجعة فيها. عناد أكراد حملته كالوحمة في دمها، منذ مولدها في بيخال، وأورثته لابنتها بتول، أمّي، التي نقلته لي. نساء عنيدات بالوراثة، كالبغال.

- جئت إلى الدنيا تحت الشلالات.

تتباهى بالقول وأنا صغيرة جالسة في حجرها، تحكي لي قصّة جدّي الأكبر، تاجر الفستق الذي كان يتنقّل في قرى الأكراد ويجوب الحدود مع تركيا وإيران. رأس قويّ وعنيد مثل تراث موروث تتناقله نساء العائلة. وهي حكاية عابرة للقارات لأن تفاصيلها بلغتني بعد أن كبرت في ديترويت.

بكيت على كتفها من التأثر والمحبة، وكانت تبكي من المحبة والقهر، وربمّا من العار. لا شكّ أنّها شاهدت المجنّدين والمجنّدات يروحون ويجيئون في المكان، والسيارات العسكرية تجتاز البوّابة، والمترجمين يستقبلون الأهالي المرعوبين ويغربلون الغضب المتصاعد. لكنّ الأُمور كانت متشابكة، وليست محسومة، في تلك الأشهر الأولى من الفوضى. والأهالي لا يزالون تحت وطأة الزلزال، لا يدرون هل يرحّبون بالقادمين على الدبّابات أم يبصقون عليهم.

كان خروجي من القاعدة، بدون حماية، مستحيلاً. لذلك جلست مع جدّتي في غرفة الحرس، والمناديل الورقيّة تتكوم بين أيدينا. عرق ودموع ومخاط. ولم أكن أدري ماذا يجب عليّ أن أقول لجدّتي، فسألتها:

- هل أنت في حاجة إلى أي شيء، هل تريدين فلوساً؟

قصفتني بواحدة من النظرات التي تشلّ اللسان في مكانه وردّت بلهجتها العجيبة في استعاراتها:

- والله وقمنا نضغط من جحغ كبيغي...

تلفتُّ حولي خشية أن يكون أحد المترجمين قد سمع عبارتها. فابتسمتْ جدّتي رحمة للمرّة الأولى منذ دخولها إلى الغرفة السيئة التبريد، ومدّت قدميها المتورمتين أمامها وسوّت أذيال ثوبها الطويل. كانت تلبس بابوجاً جديداً أسود مع جوارب سوداء سميكة. الزيّ الوطني الموحّد للنساء في العراق.

جاءت جدّتي من بغداد بسيارة يقودها شاب مربوع القامة، ذو شعر طويل وشارب كثيف، تتوسط ذقنه رصعة عميقة. قالت لي إنه حيدر، ابن طاووس. وكنت أسمع باسم المرأة التي لا غنى عنها. طاووس جاءت، طاووس طبخت، طاووس قالت. وفي كلّ مرّة كنت أدهش لغرابة الاسم. كانت طاووس قد صاحبت العائلة من قبل زواج أمّي وتفانت في خدمتها وصارت فرداً منها.

- هل نسيت طاووس؟

تسألني فأبحث في ذاكرتي ولا أجد الصورة التي تنطبق على هذا الاسم.

مع هذا أهزّ رأسي وأؤكد لجدّتي أنني لم أنسَها. كيف أنسى؟ لكنني أرى ابن طاووس للمرّة الأولى ولم أسمع باسمه.

ـ حيدر. إسمه حيدر يا زينة. إنه أخوك بالرضاعة.

لم أتوقّف، يومها، عند تلك العبارة الغريبة لأنني لم أستوعبها. كيف يكون أخي وأنا لا أعرفه ولم أسمع باسمه من قبل؟ لكن الشاب كان حاضراً أمامي، يقف قرب السيارة وهو يحمل قنينة ماء ويتطلع إليّ كمن يستبطن لغزاً. ولم يحلّ حيدر لغزي ولا تآلفت مع وجوده إلا بعد انتقالي إلى بغداد.

بقيت جالسة مع جدّتي لساعتين أو أزيد، نتحدث ونتبادل الأخبار. سألتني عن أقاربنا الكثر الذين توزعوا في البلدان، وكانت تنسى أسماء الصغار وتخلط في أسماء المدن. هل لجأ بيت حكمت إلى السويد أم إلى هولندا؟ ومن الذي مات ودفنوه في نيوزيلندا... جلال أم أخوه كمال؟

سألتني عن أخي يزن، فأخبرتها أننا نناديه جايزن، على الطريقة الشائعة في تحوير أسمائنا لتقترب من الأسماء الأميركية. قلت لها إن يزن كان متورطاً في المخدرات، ثم عافها على أمل أن يعود للدراسة، وحدّثتها عن مرض أمّي وسعالها المستمرّ.

ـ هل تركت التدخين؟

ـ لا. ما زالت على حطّة يدك. تدخّن بإفراط وتختنق وصدرها صار خرخاشة مثل صدر شرطي.

رمقتني جدّتي بعجب لأنني ما زلت أحفظ في رأسي تلك التشبيهات الشعبيّة. وبدت مترددة قبل أن تسألني عن أبي. قلت لها إننا لا نراه كثيراً

منذ خلافه مع أمّي وذهابه إلى أريزونا. هناك فتح مكتبة صغيرة وراح يطبع صحيفة محلية للإعلانات.

- وين راح الحبّ الذي تحدّث به أمّك الدنيا؟

لم أدر بمَ أجيب. ولم أكن، رغم اقترابي من الثلاثين، قد جرّبت الحبّ الذي يجعل صاحبه يخالف دنياه لكي يعيشها.

رفضت جدّتي أن تأكل أو تشرب أي شيء في المعسكر، ورغم حرارة الجو دفعت بيدي الممدودة لها بقدح الماء. كأن ماءنا زرنيخ. ثم قامت وعادت من حيث أتت. وقبل أن تتحرك بالسيّارة سمعتها تعاتبني:

- يعني كانت ضرورية شغلتك الماسخة في هذا المكان؟

منذ خلافه مع أمّي وذهابه إلى أريزونا. هناك فتح مكتبة صغيرة وراح يطبع صحيفة محلية للإعلانات.

- وين راح الحبّ الذي تحدّث به أمّك الدنيا؟

لم أدر بمَ أجيب. ولم أكن، رغم اقترابي من الثلاثين، قد جرّبت الحبّ الذي يجعل صاحبه يخالف دنياه لكي يعيشها.

رفضت جدّتي أن تأكل أو تشرب أي شيء في المعسكر، ورغم حرارة الجو دفعت بيدي الممدودة لها بقدح الماء. كأن ماءنا زرنيخ. ثم قامت وعادت من حيث أتت. وقبل أن تتحرك بالسيّارة سمعتها تعاتبني:

- يعني كانت ضرورية شغلتك الماسخة في هذا المكان؟

XVI

قرّبت العجوز وجهها من الشاب ذي الشارب الكثّ الجالس على الكرسي المقابل لها في المطبخ، ووضعت كفّها على كتفه. كانت بشرتها شاحبة إلى جانب جلده الأسمر المحروق. وشفتاها تهمّان بالكلام ولا تسعفها العبارة. قلبها لا يطاوعها على التلفظ بما تفكّر فيه. غصبت حنجرتها فخرجت منها حشرجة غريبة، قرقعة تنكة صدئة متروكة للريح:

- إنها تشتغل مع الأميركان... زينة تشتغل وياهم.

- خالة، كل الناس تشتغل هذه الأيام مع الأميركان.

- لا عيني حيدر. مو تمام. لا أحد من أهالينا وجيراننا يعمل مع الاحتلال.

- لكنّها أميركيّة. هاجرت من هنا وهي طفلة وصارت أميركيّة...

- يعني الأميركي ينسى أصله؟

- لا، ولكن زينة كبرت وتربّت في دنيا غير دنيانا.

- سنربّيها من جديد هذه البنت الجاهلة... ها عيني حيدر؟ لن نتركها ناقصة التربية.

قالت الكلمة الأخيرة بالتركية: «تربية سز»، فسارع حيدر ووضع كفّه على فمها.

- هس... ما يجوز. هذي بنتنا.

كان لا يصدّق أن عجوزاً في سنّ رحمة ما زالت تحفظ في طيّات جلدها كلّ تركة الأجيال التي تربّت على الصح. إن جيله تربّى على الخطأ. نفاق ورشوة وخوف وكلام مبطّن ولعبة الختّيلة. أرادونا بعثيين جميعاً. ومن عاند طلعوا عليه بفتوى أن المواطن الجيد بعثيّ وإن لم ينتمِ. لكن الخير كان كثيراً وأدار الرؤوس. مصانع ومقاولات ومدارس ووفود وبعثات ومستشفيات ومهرجانات ومجلات وبحيرات وأنهار صناعيّة وقرى سياحية ومراكز أبحاث. ثم اشتغلت طاحونة الحروب وشفطت النفط حتى آخر قطرة. راح الرجال وجلست النساء يلطمن الصدور.

لكن أنفاس أهل الصح ظلّت تسري بين دجلة والفرات في طواف لا ينتهي. تخرج الأنفاس في عتمات الليالي وتنفخ على الأرواح الجريحة وتلبخ الشروخ بمرهم سرّي يقال إنه متوارث من أيام آشور وبابل. ولما دخل الأميركان وجدوا بلداً ملغّزاً لا يملكون شيفرته. وكان مرافقوهم المحليّون أكثر منهم حيرة.

«جاؤوا على دبابات الاحتلال». عبارة مختصرة ألطف وقعاً من الخيانة. لكن زينة لم تكن خائنة في نظر حيدر. بنت تشتغل في الترجمة ولا تفهم في السياسة. وكان، في البداية، مسروراً بهذه الأخت التي هبطت عليه مثل هدية ثمينة في زمن شحيح بالهدايا. ثم فتح غلافها اللمّاع وشعر بالخيبة. جاءت هديته على غير ما يشتهي. أكثر اعتداداً مما يحتمله ذوقه. تقرر وتخطط وتنفذ، وتنطلق ولا تسأل رأياً أو تطلب عوناً. امرأة بخصيتين.

ومع التوغل في التعارف تضاءلت الخيبة وتفتحت بينهما شعاب الكلام. وكم كان سعيداً حين أثنت على معلوماته الموسيقيّة. لم تتصوّر أن في المكان الذي يقيم فيه يوجد من يعرف جانيت جاكسون وباقي أفراد العائلة الكريمة. لو كان يستطيع لدعاها إلى بيته في مدينة الصدر، إلى حجرته التي يتقاسمها مع أشقائه، لترى بعينيها أكبر معرض لصور مادونا على الجدران. حتى السقف كان مغطى بالبوسترات. وعندما يزخّ المطر تفكك المياه المتسللة من السطح غراء الصورة فتسقط وتدثّر الغافين.

كيف يأتي بها إلى هنا؟ هل هو مجنون؟ سيفرمون لحمها ويشوونها على مناقل الفحم ويأكلونها تازة. وفي المساء ستذيع الجزيرة نبأ عاجلاً عن مقتل جنديّة أميركيّة في ضواحي بغداد. صار العدد ثلاثة آلاف. إنه لا يأمن لأحد، ولا حتى لمهيمن الذي عاد من الأسر شخصاً آخر. كان يجمع التسجيلات النادرة لبيلي هاليداي وينام محتضناً الترانزستور وإذاعة إف. إم. حين تأكدوا أنه أسير في إيران، لم تمتد يد إلى كاسيتاته لثلاث سنوات. حفظتها طاووس في كرتونة تحت سريرها، وامتنعت عن بيعها في أسوأ الظروف. ولما عاد أخرج الكرتونة إلى الخرابة وصبّ فيها الكاز وأحرقها أمام الجميع. شاخ مهيمن قبل أوانه. عجوز في الأربعين.

لكنّ حيدر عقليّة أخرى. وهو غير مفجوع بزينة مثل فجيعة العجوز بها. ولهذا فإن لسانه لا يطاوعه على التفوّه بما يسيء إلى البنت الأميركيّة. وهو قد قلّب كلام العجوز على كافة أوجهه ووجد أنها تطلب منه ما لا يقدر عليه.

- زينة تبقى منّا وفينا. هل نسيت يا خالة أنها رضعت من صدر أُمّي؟

- وطاووس أُمّك حليبها صافٍ، عيني حيدر. لكنّ هناك من ضحك

على هذي البنت. زينة شافت أيام ضيم وضيّعت عقلها. لازم تساعدني.

هزّ حيدر رأسه بلا معنى. لا هو يرفض ولا هو يوافق. إنه يفهم حرقة قلب العجوز، لكنه ليس متحمساً لأن يضع يده في يدها ويرمّما تربية زينة. كم ألف عراقيّ، كم مليوناً تستطيع العجوز أن تربّي؟ لا، زينة هي الوحيدة التي في إمكانها أن تنتشله من مستنقع الرمال المتحركة الذي يغوص فيه. سترتّب له أوراق الهجرة وتسحبه معها إلى أميركا. وهناك سيعيش شبابه الذي ضاع منه، ويشرب على هواه، ويطيل شعره ويرقص ويغنّي ولن يترصّده وصيّ من أوصياء السماء. عاشت أميركا بلد السكارى!

XVII

كل العودات مرحّب بها إلا هذه العودة.

كل الأذرع تنفتح لاحتضان الأبناء الضالين إلا هذه الابنة.

معقولة؟

زينة، زوينة، زُنزُن التي انخلع قلب جدّها وجدّتها يوم سلخوها عنهما وهي في أرجوحة مراهقتها... تعود هكذا؟

البنت التي كانت اسماً على مسمّى، لم تحبّ شيئاً أكثر من أن يتركوها في بيت الجدّ. وكان يوسف ورحمة، عندما ولدت، قد عتّبا أرض الشيخوخة وتعوّدا وجع الكآبة. ثم هطلت زينة عليهما، أشعّة باذخة و«ليرات واهلية» كما كانت طاووس تتفنّن في وصفها. ربّياها منذ كانت في القماط، وحرساها بالشفعات وأهداب العيون. ولم تكن الطفلة تميل إلى الشقرة، مثل كل أفراد العائلة، بل كانت بشرتها مثل اللوز المحمّص... تغري باللثم.

تأتي بتول مسرعة وتترك السيارة تدور في الخارج لكي تلقي بالبنت على سريرهما وتنطلق إلى عملها. ومع زينة كان السرير العريض المسجى على لوح خشبي صلب ينقلب مرجاً للبهجة والمداعبة والقهقهات.

فرحا بها وهي تكبر وتدور حولهما وتلبّي طلباتهما مثل بشارة سمراء. ولم يتصوروا أن تبلغ القسوة حدّ حرمانهما من زيّون. لكن بتول ما عادت تطيق البقاء في البلد بعد حادثة زوجها. هل هناك عاقل يصدّق أن صباح بهنام، المذيع الرقيق الذي يخاف من خياله، يمكن أن يتآمر على الحزب والثورة؟

دقّوا على باب بيتهم في حي الأمين في الثالثة بعد الظهر، وكانت بتول تغسل أوراق الخس، وزوجها يستلقي أمام المبردة بسروال البيجاما. ولما فتح يزن الباب أزاحته جانباً سواعد متينة مشعرة. دخلوا وشتائمهم تتقدّمهم:

- وين العندليب الأسمر؟ وين أبوك القوّاد؟

هبّ صباح من مكانه وبقفزة واحدة صار أمامهم:

- نعم ... شكو... خير؟

تلقى صفعة تركت بصمة على خدّه واقتادوه معهم وهو يتعثر بأذيال البيجاما التي انفلت حزامها وسحلت على ساقيه.

غاب ثلاثة أسابيع فحسب، لكنها كانت ثلاثة دهور على بتول وباقي العائلة، ولولا أن حماه استنجد بصديق من العهد السابق، له ابن صار شخصاً مهماً في العهد التالي، لما عاد المسكين إلى وجه الأرض. عاد غير قادر على الكلام، محطّم الأسنان، تسيل دموعه بدون توقف وكأنهم ركّبوا له خزاناً منها تحت أجفانه.

بعد مرور أيام، تجرأ صباح على رواية ما حصل له لزوجته بتول. أخذته يسافرا بمفردهما إلى الشمال، لدى عمّتها، لتبعده عن أجواء التوتر في

بغداد. وهناك، تحت شجرة فستق في عينكاوة قال لها إن الوشاية جاءت من أقرب زملائه، إي والله، والتهمة هي أنه احتجّ على طول النشرة وقال إن أخبارها بائتة من نشرة اليوم السابق.

قبل أن يضربوه ويبولوا عليه ويكسروا أسنانه ويسحبوا طرف لسانه بالكلابتين ويحرقوه بسكائرهم، أجلسوه إلى طاولة وهو عار، ونصبوا أمامه كاميرا تلفزيونية وأعطوه أوراقاً مكتوبة لقراءة النشرة. وكان الخبر الأول عن إعدام المذيع صباح شمعون بهنام شنقاً حتى الموت، بعد إدانته بالتآمر على الحزب والثورة.

لم تتمكن بتول من السكوت على ما حصل لزوجها، هي التي تربّت في بيت يؤمن بالحق والعدل والكرامة، وقررت أن تتقدم بشكوى رسمية، وذهبت تستشير رئيسها في الجامعة لعلّه ينصحها بما يجب عمله.

ـ لقد عذّبوا زوجي يا دكتور!

سمع العميد شكوى الأستاذة بتول، وكان حزبياً كبيراً، فضحك محرجاً وقال للموظفة التي جاءت تستغيث به:

ـ عذّبوه؟ يا معودة هذا مو تعذيب. كانوا يتشاقون ويّاه بس.

كانوا، إذاً، يمزحون مع صباح عندما حطّموا أسنانه وقرضوا حافات لسانه بالكلابتين وعذّبوه بالكهرباء. والعميد نفسه أكّد لها أن التعذيب شيء آخر أبعد من مجرد الدغدغة وحلحلة الأسنان. ولو لم تكن المزحة خفيفة لما عثرت لزوجها على أثر. وكان رأي العميد الموقّر أن تحمد ربّها لأنه عاد إلى بيته «مثل الورد»، ماشياً على ساقيه.

تركت بتول كل ما تملك، البيت والسيارة والوظيفة الجامعية وأخذت

يزن وزينة وهربت مع زوجها، في ليلة سوداء، إلى الخارج.

دبّر أحد الأقارب جوازاً مزوّراً للمذيع الهارب، يحمل اسم كوركيس شمعون، المهنة تاجر أدوات احتياطية. وربّى شاربين كثّين وأخفى عينيه وراء عوينات سميكة، حسب الصورة الملصقة في الجواز الجديد. وهو لم يكن في حاجة إلى تغيير ملامحه لأن من يرى الشبح المتداعي الذي آل إليه بعد خروجه من التوقيف فلن يتعرف فيه على المذيع الوسيم السابق.

وصلوا إلى الأردن وقدموا أوراقهم إلى مفوضية اللاجئين وانتظروا حتى جاء دورهم في التسفير. ورغم أن الرشوة كانت تشتري العراق بأكمله، فإن بتول لم تكن تحمل أي شهادات أو تقارير طبيّة أو إنذارات بالفصل من الوظيفة. كان لسان صباح المقروض بكبّاسة الورق والمثقوب بالكلابتين شهادة الإثبات الوحيدة على استحقاقه وأسرته حق اللجوء.

إنخلع قلبا الجدّين وهما يودّعان زيّون ويغسلان وجهها بالدموع. إنّها ليست أول من يفارقون، لكنّها الأطرى والأعزّ. ولم تكن سفرة عادية مما يعود الغائب، بعدها، ويلتقي أحبّته، بل هجرة إلى البلد البعيد الذي يكون الرحيل إليه كالذهاب إلى الموت، لا لقاء يرجى بعده.

لكن زينة عادت بعد خمسة عشر عاماً.

كل العودات مرحّب بها إلا هذا الإياب. إنه يكوي الحشا.

XVIII

بعباءتي السوداء التي تغطي قامتي وجزءاً من وجهي ترجلت من التاكسي الذي أخذني إلى البيت القديم. كانت شمس الظهيرة ساطعة مثل كل أيام الشتاء في هذا المكان من الكرة الأرضية. لذلك بدأت بلوزتي الصوفية تحكّ رقبتي وقطرات العرق تنساب بين ثدييّ.

يحدث في الأحايين، هنا، أن تتجمع الغيوم ويتلبد الجو وتزخّ السماء وكأن حنفيتها قد انفتحت. وبعد دقائق يتوقف المطر وكأن يد ملاك قد امتدت وأقفلت الحنفية على حين غرّة. ثم تصفو السماء وتستعيد وهجها تاركة الناس السفليين يتخبطون في الوحل والمستنقعات التي تظهر في لمح البصر. ديكورات سينمائية جاهزة يأتي بها العمال، مدفوعة على عجلات، من مخازن يونيفرسال ستوديو.

إشتقت إلى جدّتي رحمة.

لم أرها بعد ذلك اللقاء الذي مضت عليه أشهر. خابرتها وسمعت صوتها في الهاتف. صوت امرأة لا يسلّي وحدتها بشر. قالت لي إن عيد الميلاد مرّ عليها ثقيلاً وهي بمفردها، تسمع دويّ الهاونات ورشقات الرصاص، تحادث التلفزيون، عندما تأتي الكهرباء، وتنتظر أن يستعيد الربّ أمانته. سمعتها فركبني جنّ أعرفه جيداً وأعرف أن أحداً لن يردعه. كان كالفن، الذي عانى كثيراً من ساعات جموحي، يسألني عن اسم هذا

الجنيّ فأقول له إن اسمه «خناس». أضحك عليه وهو يحاول أن يلفظ الخاء فيفشل ويعيد المحاولة حتى تنجرح حنجرته.

- من سقف الحلق يا عزيزي... خاء... خاء... لا من الحنجرة.

كنت قد احتفلت بعيد الشكر مع زملائي في القاعدة، وجاؤوا لنا بكل ما نشتهي من أصناف الطعام، الديك الرومي وأفخاذ الخراف والدجاج المحشوّ والسمك المسكوف. طبخ كل ذلك طباخون بنغاليون وأتراك يعملون بعقود مع الجيش الأميركي. وكانوا ينصبون الموائد ونتقدّم واحداً بعد الآخر، مثل مدارس الأطفال، لكي نملأ صحوننا، ويكون الواقفون على خدمتنا من الكولونيلات والجنرالات، حسب تقليد خاص بعيد الشكر في الجيش.

تأتي الشاحنات محمّلة بالمواد الغذائية من تركيا عن طريق زاخو، ونعرف بوصولها عندما تحطّ على موائدنا باكيتات الفستق واللوز وقلائد التين والفواكه المجففة. هل يمكن تعويض البيرة بقمر الدين؟ كان الجنود يتذمرون لأن المشروبات الكحولية ممنوعة منعاً باتاً. وتعرّض مستخدمون محليون، أكثر من مرّة، للعقاب بعد الإمساك بهم يهرّبون علب البيرة إلى القاعدة. وكان هناك متعاونون يأتي الواحد منهم إلى البوّابة الخارجية ومعه قنينة عرق ملفوفة جيداً ويطلب إيصالها إلى الضابط الفلاني. ويكون الضابط قد دفع له ثمنها، مسبقاً، بالورق الأخضر.

ذات يوم، جاءت إلى البوّابة واحدة من النساء اللواتي كنت قد ترجمت لهن معاملة تعويض. كانت تحمل ثمانية أقراص من كبّة الموصل وطلبت إيصالها لي. أجمل هديّة تلقيتها في حياتي. وأقمت، تلك الليلة، مأدبة عشاء برمكيّة.

بعد «الثانكس كيفينغ» بفترة قصيرة حلّ عيد الميلاد لعام ٢٠٠٣. واحتفلنا به قبل ستة أيام من رأس السنة، حسب الطقس الغربي الذي يسبق احتفال الطوائف الشرقية ببضعة أيام. وكان من الدارج في الأعياد أن يهبط علينا أحد كبار المسؤولين، مثل سانتا كلوز، لكي تنقل محطات التلفزيون صورته وهو بين «الأولاد».

حال سماعي صوت جدّتي في التلفون تدعوني إليها، تقمّصني الخنّاس الذي أعرف أعراضه. كنا في الأيام الأولى من العام الجديد، قبيل احتفال الطائفة الشرقية بعيد الميلاد، ولم يكن خنّاسي قادراً على الانتظار. تركت تكريت في الصباح بعد أن أوهمت الضابط المسؤول بأنني ذاهبة لرؤية طبيبة نسائية لأمر لا يحتمل التأجيل.

قال لي إن طبيب القاعدة موجود لهذا الغرض، لكنني تظاهرت بالخفر الأنثوي العربي، وتمسكت بضرورة أن تعاينني طبيبة. قلت له إن المنظفة نهرين أخذت لي موعداً مع دكتورة من معارفها في الموصل، وهي ستنتظرنا في بيتها، لا في المستشفى. وبالفعل، جاءت نهرين في الموعد المحدد وردّدت الحكاية نفسها أمام الضابط، لكنه لم يكن مرتاحاً لذهابنا إلى الموصل في تلك الظروف.

ـ أي ظروف يا سيدي؟ إن دورياتنا في كل مكان وسأعود قبل العشاء.

سبقتني نهرين في الخروج ثم تبعتها بثياب مدنية عادية تشبه ما ترتديه نساء المدينة. ووضعت على رأسي العباءة التي كانت قد أحضرتها لي. وعند الشارع العام وجدتها تنتظرني مع سيارة أجرة يقودها سائق من أقاربها. عانقتها وشكرتها للمساعدة.

ـ كذبتك في رقبتي نهرين.

ـ تأكّدي أن الربّ سيكافئني على هذه الخطيئة بثلاث حسنات.

تحركّت السيارة في الطريق إلى بغداد، وأنا لا أُصدّق أن الضابط سمح لي بالخروج. كان هناك مجنّد من أصل عراقيّ قد اختطف واختفت آثاره. سمعنا أنه كان يتردد على أقارب له وتزوّج ابنتهم. هل وشى به أحد منهم؟

في الطريق، شاهدت أبنية مهدّمة ومناطق تعرضت للقصف، تلتها مناطق زراعية ما زالت تنتظر الربيع لكي تعلن خضرتها. وكانت أرتال من جيشنا تصادفنا بين الحين والآخر، فأهمّ بأن أرفع يدي بالتحيّة ثم أتذكر وضعي وأبقيها تحت العباءة وأنا أُحاذر من التقاء عينيّ، في المرآة، بعيني السائق. ثم لاحت لنا بساتين نخيل على مشارف بغداد.

نزلت في الشارع العام، من باب الحذر، ثم استدرت نحو أول فرع على اليمين، مقابل ما كان يسمّى بسوق الثلاثاء، وريح كانون الباردة تضربني وتنفخ عباءتي. وكان هناك رجل مربوع بدشداشة رمادية يأتي قادماً في اتجاهي من آخر الشارع، فلممت العباءة حول وجهي ولم أترك سوى عيني اليمنى مكشوفة ترى الطريق. لم أكن خائفة، لكن التوجّس عادة تعلّمتها هنا. ولما حاذاني الرجل، متعمداً الاقتراب مني إلى أدنى حد ممكن، حدجته بنظرة مباشرة صفيقة لكي أقول له بأني قوية ولست خائفة منه. وسمعته يقول وهو يجتازني:

ـ شلون عين؟... تقره وتكتب!

يا ألله! كدت أدور على عقبيّ وأجري وراءه وأتوسل إليه أن يسمعني المزيد من تلك الحرشة العبقريّة. وفي البلد الذي جئت منه، لم يعد أحد يتحرّش بالنساء في الشوارع، ليس بي على الأقل. لا شك أن نساء هذه

البلاد يرفلن في حرير الغزل والنظرات الملتهبة التي تكشط عن جلودهن قشرة البلادة والإهمال.

كيف سأشرح لكالفن، في إيميل موجز، معنى العين التي تقرأ وتكتب؟ وهل سيفهمني ويزيّت، من أجلي، مخيلته الخاملة كما تُزيّت مفاصل باب كثير الصرير؟ مسكين حبيبي الأميركيّ. لن يفلح، مهما فعل، في مجاراة ذلك العراقي السرسري الذي حاذاني، قرب سوق الثلاثاء، وحكّ الصدأ عن أُنوثتي.

سرت أتعثّر بأطراف عباءتي، وأنا أبحث عن البيت الذي كنت أتصوّر أنني سأستدل عليه، مغمضة العينين، من كثرة ما رأيته في أحلامي. كلّ شيء تغيّر في بغداد. وها أنا أمام الباب الحديديّ الواطئ، أمد يدي وأضغط على الجرس ولا أسمع رنيناً. التيار مقطوع. وهذا يفرحني لأنه يعني أنني سأتمتع بشعلة المدفأة النفطية لا بذلك الأكورديون الزيتي الذي يعمل بالكهرباء. سأجلس أمام الصوبة وأنحني عليها، مقوّسة ظهري فوقها، مسندة قدميّ فوق قاعدتها المعدنية الملساء، محتكرة دفئها لي وحدي في فيلم بعنوان «الأنانيّة الجميلة».

أجتاز الممشى القصير في الحديقة وأطرق على الباب الخشبيّ طرقة أولى، وقبل الطرقة الثانية تفتح لي طاووس وتجرّني إلى الداخل وتغلق الباب خلفي بالمفتاح، دورة ثم دورتين، وتسحب المزلاج. تسمّيه السقّاطة، معيدة إلى ذهني مفردة أخرى كانت قد ضاعت من لغة طفولتي.

طاووس لا تشبع من عناقي وتقبيلي، وتقول إن لها حصّة فيّ. وأنا مشغولة عنها بالبيت الذي يعبق بفوح الرز، يتنفس على نار هادئة. ضوع

لا شبيه له يغطّي على عطن السجاد العتيق والدخان الأبيض الواهن لبخور الكافور. هل نحن في جمعة الموتى؟

جاءت جدّتي تتحامل على نفسها لكي تنتزعني من حضن طاووس وتستبقيني لنفسها.

- كنت أعرف أنك ستأتين. الدم يحنّ.

أخذتني من يدي إلى الكنبة القريبة من نور الشباك وقعدت لصقي. كانت تضرب بيديها على فخذيها في حركة لا تصدر عن النسوة إلا عند المآتم والخطوب. إنها تتأملني بنظرات حزينة وعيناها تقولان الفيلم كلّه. وأنا مستكينة مكشوفة لها منتظرة خطاب التأنيب. أعرف ذنبي ولا أنوي الدفاع عن نفسي.

لما شبعت من منظري، سحبت إليها سترة خاكية اللون ذات نجوم ذهبية على الكتفين وبدأت تلمّع أزرارها النحاسيّة. وبين دقيقة وأخرى تمدّ يدها بخرقة قطنية إلى طاووس فتتلقفها منها وتضعها على فوهة علبة البراصو ثم تقلب العلبة قلبة سريعة ليتبلل القماش بالسائل الثقيل.

لماذا كلّ هذا الصمت؟

تلتقط جدتي الخرقة من يد طاووس وتفرك النجوم بكثير من التأني والحنان. وعندما تنتهي من تلميعها تتحامل على نفسها وتقوم إلى الدولاب. كانت تتدلى من ضلفته العليا علّاقة خشبية تحمل في عارضتها الأفقية سروالاً خاكياً أيضاً، مكوياً بعناية. وبكثير من الاحتراس تُلبس العجوز السترة على حدبة العلّاقة وتزرّرها وتأتي بالبزّة العسكرية كاملة تمددها على الكنبة، إلى جوارها.

- هل نسيت يا زينة؟ اليوم ستة كانون الثاني... عيد الجيش.

فهمت ما كانت تؤدّيه من طقوس. إنها تعيد ما كان زوجها يفعله عاماً بعد عام في مثل هذا اليوم من السنة. ألم يواصل جدّي يوسف الاحتفال بهذا العيد، على طريقته، بعد أن طردوه من الجيش؟

أنظر إلى بدلته العسكرية معلّقة أمامي وأراها صليباً بلا رأس. لماذا تريد جدّتي رحمة أن تحمل هذا الصليب حتى آخر يوم في حياتها؟

أضع رأسي في حجرها وأتركها تلقي عليّ دروسها المضمّخة برائحة العراق. تحفر في ذاكرتها لكي تعثر على كل الأمثلة ووسائل الإيضاح. تقول لي إنّ تاريخ عائلتي ماثل هنا. بصمة دمي وعظام أجدادي. وأنا أشرب حكاياتها ولا أرتوي. هناك حلقة مفقودة في الرواية. وليس من واجب جدّتي رحمة البحث عنها بل هو دوري.

- أحالوا جدّك على التقاعد بعد ثورة ٥٨ بأشهر قلائل. لم يكن معارضاً ولا من المتآمرين. لكنّ محاولة انقلابيّة قامت في الموصل فأعدموا القائمين بها وأبعدوا الضباط القوميين.

- كيف كان جدّي قوميّاً وهو المسيحي الكلدانيّ؟

- ولم لا؟ هل تمنع الأديان حبّ الوطن؟

كانت العسكريّة هي حلم شباب الموصل في الأربعينيات. من أجلها ترك جدّي مدينته ونزل إلى بغداد لدراسة الحقوق على نفقة الجيش. بكت والدته واعتبرته في عداد المهاجرين. ولم تكن العاصمة تبعد أكثر من ليلة في القطار. صار ضابطاً بعد التخرج وتدرج في الرتب حتى استحق نجمات العقيد. كان يعشق البدلة الخاكية وفرض احترامها على كل أهل البيت.

ورغم اعتياده شرب العرق كل مساء، مثل غالبيّة رجال زمانه، فإنه لم يمدّ يده إلى المشروب وهو بالخاكي. حتى المشاحنات كان يمتنع عنها وهو يرتدي البزّة، فإذا استفزّه أحد وأخرجه عن طوره سارع إلى خلع السترة وفكّ الرباط، ورمى بالقميص العسكريّ ثم انهال عليه بالشتائم.

هل تبالغ جدّتي في رواياتها لكي تستحوذ على عقلي وتستعيدني إلى حظيرتها؟

ـ أحلف بالعزيز الغالي إن كلّ ما أحكيه حدث هنا، داخل هذا البيت الذي تشهد جدرانه على ما أقول.

قالت إن جدّي ثار، ذات يوم، على أخيه الصغير لأنه عاد من مكتبه في الدفاع ووجده يعبث بأوراقه الخاصة ويتفرج على رسائله إلى جدّتي، تلك التي بعثها لها من جنين، أثناء حرب فلسطين. كان قد ذهب مع فرقته لفكّ الحصار عن قوّةٍ عراقيةٍ حوصرت في قلعة المدينة. أنجزوا المهمّة وبقوا هناك. أُعلنت الهدنة لكن الحرب ظلّت بين العرب واليهود إلى يومنا هذا.

سحب الرسائل بحركة عنيفة وأعادها إلى الدرج بدون أن يتفوّه بكلمة. ثم جرى نحو غرفة النوم وخلع البزة العسكرية وعاد بالسروال لكي يصفع عمّي.

اعتاد العقيد يوسف فتّوحي، أيضاً، أن يلاحظ مدى اهتمام كلّ واحد من رفاقه الضباط بقيافته العسكرية. وكان يخبر جدّتي أن الزعيم غازي الداغستاني هو أكثر ضباط الجيش العراقي أناقة. أما ذلك العقيد الذي شاركه حجرته في الدفاع، قبل الثورة، فكان يخلع قميصه في ليالي الخفارات الصيفية الحارة كاشفاً عن فانيلة مليئة بالثقوب. ولما نصبوه رئيساً للجمهورية، في الستينيات، فكّر جدك بأن يبعث له بدستة من الفانيلات الجديدة.

بعد تقاعده من الجيش، استدعاه الزعيم عبدالكريم قاسم، رفيقه القديم في حرب فلسطين وقال له بطيبته المعروفة: «لا أحد يشكّ في وطنيتك ولا في إخلاصك للجيش. لقد فاتحتك في الانضمام إلى الضباط الأحرار وأنت رفضت. لكنّ بيننا خبزاً وملحاً. وأنا قد رشحتك مستشاراً قانونياً لمصلحة السكك الحديد، وأرجوك ألا ترفض عرض أخيك».

قبل جدّي الوظيفة ذات المرتب المجزي، وشعر بالامتنان للزعيم. كيف كان سيعيل أسرته الكبيرة وهو المحال على التقاعد في سن الأربعين؟ غير أن المستشار في السكك لا يرتدي بدلة الضبّاط ولا تلتمع النجوم على كتفيه. وكانت جدّتي رحمة تدرك حسرته فأخفت البدلة الخاكية في مخزن الدار. كانت تخشى أن يفتح دولاب الثياب ويرى البزّة أمامه، فتثور شجونه.

لكنه بحث عنها عشيّة أول عيد للجيش يحلّ بعد خروجه من الخدمة، وثار وعربد وخاصم الجدّة عندما عرف أنها نقلت البدلة إلى المخزن. وذهب وأخرجها من النفتالين وأخذها بنفسه إلى المكوى لكي ينظفها على البخار. عاد بها ملفوفة في ورق أبيض صقيل يستخدم، عادة، لهدايا الأعياد، لا لتغليف البضاعة في الدكاكين.

في السنوات التالية اعتاد أفراد الأسرة أن يقولوا، وهم يرونه عائداً والكيس الأبيض يستلقي على ذراعه: «جاءت بدلة العرس». كانوا يتهامسون بالعبارة فيما بينهم، لئلا يسمعهم وتكون الغضبة الكبرى. ولم يكونوا في حاجة إلى الروزنامة لكي يعرفوا أن السادس من كانون الثاني قد اقترب. فإذا استيقظوا في صباح بارد ووجدوا الجدّ يلمّع نجمات بدلته، فهموا أنها ليلة عيد الجيش.

ومع كل تغيير في بيادق النظام، ظلّ جدّي ينتظر هاتفاً يدعوه إلى العودة للجيش. لكن الانقلابات تتالت، والسنوات مرّت، ولم يرنّ الهاتف. ابيضّ رأس العقيد الركن المتقاعد يوسف فتّوحي الساعور، وخفّ سمعه، وما عادت تحيّته العسكرية تضرب الأرض وتكاد تزلزلها. عبث داء الرعاش بخطواته وجعلها أشبه باهتزازات طفل يحاول النهوض على ساقيه للمرة الاولى.

تعبت جدّتي من الكلام. انسللت من حضنها وقمت لأقف إلى جوار البزّة الخاكيّة المعلّقة، وأتلمّس قماشها الصوفي السميك وتفصيلها الرصين. إنها لا تشبه ما نرتديه في جيشنا من ثياب عملية مرقطة وأقمشة مستحدثة. تناولت السدارة الزيتونيّة ومسحت جوخها ثم رفعتها برفق وتهيب، كما ترفع التيجان، ووضعتها على رأسي ومشيت لأقف أمام المرآة. وكانت جدّتي ترمقني بعينين دامعتين. هل كانت دمعة سخط أم هو التأثر؟

كنت قد ارتديت ثياب الجنود، لأول مرّة، في معسكر فورت بلس في تكساس. وظلّ كالفن يضحك كلّما تذكّر كيف أنني عدت ووصفت له شعوري في تلك اللحظة، قائلة إنّني شعرت بالرجولة، فقام من جلسته المسترخية على الكنبة ووقف، وهو نصف سكران، وأدّى لي التحيّة العسكريّة وبيده علبة البيرة التي انسكبت على جبينه.

ملأني الفخر بعد أن أعطوني البدلة المرقّطة وتأكدت من أنني ذاهبة إلى المهمّة التي ستجعلني أستحق المواطنة الأميركية. إنها فرصتي لردّ الجميل للبلد الذي احتضنني منذ أول الصبا وفتح لي ولأسرتي صدره. لكن بدايتي في ديترويت لم تكن مشجّعة. أصابني «الهوم سيك» وكنت أبكي كل ليلة قبل النوم. كل ليلة وطوال ثلاثة أشهر، حتى أن أمّي خافت عليّ من المرض

وفكّرت بإعادتي إلى بغداد. لكنني، في الشهر الرابع، انتظمت في الدراسة وجفّت دموعي وأخذتني دورة الحياة. إنه فيلم «تموت وتتعوّد».

لم أكن أعرف شيئاً عن لباس الجيش ولا التدريب العسكريّ. وعندما أعطوني الخوذة عرفت أنها لوحدها قضيّة، بل معضلة تحتاج فهماً ومراناً. ولو أردت تيسير الأمر بكلمات سريعة لقلت إن الخوذة حديدة مصفّحة مغطاة بقماشة، تلزمها تربيطة معيّنة لكي تضبط حسب حجم الرأس وتستقر عليه بشكل صحيح.

- تذكّروا أن الخطأ في ضبط الخوذة هو مسألة حياة أو موت.

هكذا كان يوصينا العريف الذي لقّننا أسرارها مثلما علّمنا كيفية ربط حبل البسطال فوق جورب طويل يلمّ السروال ويصل إلى الركبة. أما القميص العسكري فكان سميكاً ويُلبس فوق تيشرت بنّي اللون، الأمر الذي يجعلنا نتعرّق عرقاً غزيراً ونشعر بالاختناق.

تذكّرت كل ذلك بينما كانت نفسي تراودني بأن أفكّ أزرار سترة جدّي الثقيلة، وأن أضعها على كتفيّ النحيلتين. وخفت أن أفعل فتنهرني جدّتي رحمة. لكنها ترددت قليلاً ثم قامت وتناولت السترة أمّ النجوم الذهبيّة بيديها المرتجفتين وألبستني إياها. كانت تقف ورائي فلم ألمح تعبير وجهها. ثم تواجهنا ومدّت يديها تزرّر سترتي. وابتعدت كمن يريد تأمل لوحة من مسافة مناسبة ورمقتني بنظرة طويلة لم أُخطئ في قراءتها: هل يعقل في هذا الزمان المجنون أن تنجب بزّة العقيد العراقي سترة ضد الرصاص «صنعت في أمريكا»؟

XIX

صرت تكريتية!

إنه انتقام جارتي الأميركية المتزوجة من لبنانيّ يملك محلاً للبقالة في الداون تاون. كانت كانديس قد ولدت في بلدة ليتل روك وكبرت فيها قبل أن تتعرف على روكز وتحبّه وتلحق به إلى مشيغان. أطلقت عليها اسم «كانديس التكريتي» لأنها من نفس بلدة الرئيس كلينتون. وكان زوجها يلتقط دعابتي ويضحك لها، أما هي فلا تفهم ما أقول وتلعنني بطيبة قلب.

أقمت في تكريت وتسلّمت عملي في دائرة الشؤون المدنية بوظيفة مستشار ثقافي. مترجمة لا تكتفي بتحويل الكلام بين لغتين بل تقدم خبرتها الاجتماعيّة للجنود. أقول لهم، مثلاً، إن الدخول إلى أماكن الصلاة لا يكون بالأحذية. إن عليهم التمهل لكي تغطي النساء رؤوسهن قبل اقتحام البيوت. إن الناس ينفرون من كلاب التفتيش ويعتبرونها نجسة. أشرح ذلك للضباط والجنود وقد يأخذون بما أقول أو يتركونه يدخل من الأذن اليمنى ليخرج من اليسرى.

كان مقرّ عملي في أحد القصور الرئاسيّة. مبنى يشبه الخيال. «شي متل الكذب» كما كان روكز، زوج كانديس، يقول حين يصف لنا ثراء الشيوخ الذين عمل معهم في الخليج. أجلس على كرسيّ وثير مغلّف

بالجلد الزيتونيّ، يتسع لثلاثة مثلي، وأكتب على طاولة من طراز أحد النابوليونات.

في الأيام الأولى كنا نقف ونشهق أمام الأرائك المذهبّة والسجاد الصينيّ، وندوخ ونحن نرفع أعيننا إلى السقوف المقرنصة وفق الطراز الأندلسيّ، تتدلى منها ثريّات بوهيميا. وبعد أقلّ من أسبوع تعوّدنا على القصر وموجوداته وكأننا ولدنا في أحضان هذه الفخفخة. وأحياناً، كنّا نشعر بالحيف عندما يرسل لنا مجنّدون في المنطقة الخضراء إيميلات لصور التقطوها في قصور أكثر فخامة. إنهم أبناء العاصمة ونحن أبناء الريف. لكن التكارتة لم يكونوا ريفيين سُذّجاً في تعاملهم معنا بل مجموعة ألغاز.

كل يوم، يأتي رجال ونساء لكي يشتكوا ويحتجوا ويطالبوا. هذا أحرق جنودنا دكاناً له، وتلك دهست سيارة عسكرية بقرتها، وثالث كسروا زجاج بيته أو تهدّم البيت كلّه بعد أن سقطت عليه قذيفة. نحن سبب كل الكوارث في المدينة المدلّلة. وأنا أستمع وأترجم وأكتب وأقدّم المشورة. لا أسمح لنفسي بالتعاطف أو إبداء التأثر.

يأتون، في الصباح، بعد أن يقفوا في طوابير طويلة أمام البوابة وينصاعوا، على مضض، لإجراءات تفتيش دقيقة وقاسية. نسجّل خسائرهم ونتحاشى كثرة النقاش. وبعد أسبوع أو أسبوعين نمنحهم تعويضاً مادياً يبدأ من مئة دولار ويصل إلى ألف. أولئك هم زوّار النهار. أما المساء فكانت عتمته ستراً لزوّار آخرين... يتقدمون طوعاً لإعطائنا «معلومات تفيدنا». هكذا كانوا يصفون وشاياتهم طمعاً في عمل أو مقاولة أو بضع ورقات خضر.

يأتي أحدهم ليخبرنا بأنه يعرف مكان عزة الدوري. «ثقوا أنه سيكون

في القرية الفلانية، الساعة الفلانية». أُسجّل إفادته وأترجمها وأحوّلها إلى العقيد المسؤول. وفي يوم آخر تجيء شابة ذات عينين واسعتين كحيلتين تقف أمام موظف الاستقبال وتطلب مقابلة خاصة. لم تكن من أهالي تكريت لكنها تدرس في جامعتها. دخلت متخفية بعباءة مثل النسوة المتضرّرات اللواتي يأتيننا شاكيات من اعتداءات دورياتنا. وحالما وصلت إلى مكتبي رمت عباءتها وقالت إن لديها «معلومات تفيدنا».

أدخلتها إلى غرفة خلفية وطلبت ملازم الاستخبارات وترجمت كلامها له. قالت الطالبة إن مجموعة من زملائها سيعقدون اجتماعاً ضد الاحتلال في الساعة الفلانية. أعطتنا بعض التفاصيل ثم راحت تفيض في الحديث عن إعجابها بالغرب وغرامها بموسيقى الروك. لم أشعر بالاطمئنان لها رغم أنها كانت حلوة ولمّاحة ولبلبانة في الكلام وتدبّر أمورها بإنكليزية لا بأس بها. قدّرت أنها لم تبلغ العشرين. عميلة في المهد.

أحبّت تلك المخبرة الصغيرة ملازم استخباراتنا فرانكي، وهو أفروأميركان من شيكاغو، وأعجب بها هو أيضاً وكان هدفاً سهلاً لنظراتها الموجّهة. وتطورت العلاقة بينهما حتى وصلت إلى الاتفاق على الزواج. وكانت تأتي مرتين في الأسبوع لزيارته.

وحسب التعليمات، فإن أحداً منا لم يمنح تلك المخبرة ثقة تامة. ما يدرينا أنها ليست مدسوسة علينا من المقاومة؟ وحتى فرانكي نفسه كان يشكّ في أمرها أحياناً، ويأتي لكي يطلب منّي، باعتباري أفهم عقلية النساء هنا، أن أختبرها وأسرح بها في الكلام لأعرف هل تحبّه بالفعل أم تمثّل عليه دوراً. ولم يضايقني أن أكون مستشارة لشؤون القلب والسينما. أتمتع بفيلم من نوع «جولييت في تكريت».

حين بلغت علاقتهما مرحلة مسك الأيدي، كنت أترك لهما الغرفة غير عابئة بما يجري بينهما. لست من بوليس الآداب. أظن أنه وعدها بالزواج بعد أن تنتهي خدمته في العراق. صدّقت أنه سيعود لكي يأخذها معه إلى شيكاغو.

حكاية تحصل في كل الحروب وبين كل الشعوب. لكن جثة المخبرة الصغيرة شوهدت، ذات صباح، مرمية فوق تل من الأزبال وقد نحرت وفقئت عيناها. صدمة أولى أنهت إحساسي النزق بالمغامرة ووضعتني في قلب المأساة. أول الغيث كما يقول أبي.

في الليالي، كان عليّ أن أشارك في الدوريات وفي مداهمة البيوت التي نشكّ بأنها تؤوي إرهابيين. ليال طويلة مثقلة بالترقب والصراخ والتوسلات والنحيب والنظرات الحادة الأمضى من السكاكين. والغريب أنني لم أكن أشعر بالخوف بقدر ما كنت أعي أنني أمرّ بتجارب ما كان يقدّر لي أن أعيشها. هناك من يتباهى بأنه صنع التاريخ. ونحن كنّا نصنع مستقبلاً جديداً لهذا البلد الذي يحتضن عظام أجدادي وكان، يوماً، حاضنتي.

تبدأ المهمات الصعبة بعد العاشرة ليلاً. والليل في تكريت يبدأ مع موعد العشاء، في السادسة. الساعة التي يكون فيه الشباب في أميركا قد عادوا من العمل أو من الجامعة واغتسلوا وارتدوا ثياباً لائقة للخروج إلى المراقص وصالات الجيم والحانات.

كان عشاؤنا في المعسكر Shit بمعنى الكلمة، طعاماً ناشفاً معبأً في أكياس. أفتح الكيس وأسكب عليه ماء ساخناً يتفاعل مع مسحوق في داخله، ويولّد التفاعل طاقة تسخّن الطعام. أطباق فضائية تطلع لنا منها قطع من الدجاج مع المعكرونة أو كرات من اللحم المفروم مع الخضار.

وهناك بودرة صفراء نضيف إليها الماء لتصبح شراباً يشبه عصير الفاكهة. أما إذا أرادوا تدليلنا فإنهم يرسلون لنا، مرتين في الأسبوع، مجنداً طباخاً يعدّ لنا وجبات أميركية ساخنة من نوع شرائح لحم الخنزير مع البطاطا المسحوقة... يا ما أحلى أكياس «الشيت».

وكنّا نعوّض جوعنا المستديم بأن نرسل أحد المترجمين المحليين إلى المطاعم الشعبية لكي يأتي لنا، من وقت لآخر، بدجاج مشويّ أو كباب من الذي تشتهيه النفس. والمترجمون المحليون هم سفراؤنا إلى خارج أسوار القصر. لا يدخلون إلى المعسكر بل يقفون عند البوابة الخارجية ويتولون الترجمة بين الحراس وأصحاب الطلبات، ثم يوصلونهم إلى البوابة الثانية فيتسلمهم المترجم الأميركي... أي أنا.

في المرّة الأولى التي التهمت فيها كباب السوق، أصابني مغص ملعون ومعه إسهال ألعن. لم تنكسر عيني. واصلت اشتهاء الكباب المحلّي. وهو شحم صاف مع شبهة لحم. وهنا مكمن لذّته. دام الإسهال أسبوعاً وفقدت ثلاثة كيلوات.

ذات يوم، أطلّ عليّ من عليائه بنجامن غرين، اللفتانت الذي نسميه «بيغ بن». كان طوله يزيد على المترين، وأنا متربعة على مرمر القصر وقد شمّرت عن ساعديّ أمام جريدة توزعت عليها صحون الكباب والكرّاث والبصل الأخضر وطرشي ثوم العجم. قال باستهجان وكأنه مستعمر أبيض يخاطب عبدة متوحشة:

- ما هذا الذي تضعينه في فمك؟

- كباب.

- كيف يسمحون بإدخال طعام من الخارج؟ ألا يحتمل أن يدسّ رجال المقاومة السمّ فيه؟

- ولهذا لا بدّ من تناول ثوم العجم معه... إنه كفيل بإبطال مفعول أقوى السموم.

قلت له ذلك ومددت له يدي بفصّ من الثوم المنقوع في خل التمر ذي الرائحة الكافية لتخدير فيل. أخذه بطرفي إصبعيه وكأنه يمسك عقرباً وقرّبه من أنفه باحتراس وعطس عطسة مكتومة. رمى العقرب على الجريدة وابتعد هارباً بساقيه الطويلتين وأنا أصيح خلفه:

- لا تخف بيغ بن... إنه لا ينفجر تحت الأسنان!

ثم جاء الفرج. تعرفت على امرأتين من قرى الشمال، فرّاشتين في ثانوية تكريت للبنات، خسرتا عملهما بعد أن توقفت الدراسة بسبب الحرب، وجاءتا تبحثان عن عمل في المعسكر. قالت الأولى إن زوجيهما من معوقي حرب إيران، وقالت الثانية إنها تعيل لوحدها أسرة كبيرة. رقّ قلب النقيب دكسون وقرر تشغيلهما في تنظيف المبنى وتحضير الشاي. وبما أنني كنت في جوع دائم إلى طعام قابل للأكل، فقد تفحّصت المرأتين ووقع اختياري على السمينة بينهما.

- هل تعرفين طبخ الدولمة؟

سألتها بمنتهى الجد وكأنني أُحقق معها في قضيّة أمنيّة. وردت وهي تبتسم بمكر فلاحيّ:

- دولمة وبرياني وتشريب وكل ما يشتهيه قلبك... تدلّلي وأنا آتيك به.

أعطيتها عشرين دولاراً وطلبت منها جدريّة برياني. وجاءت في اليوم

التالي ومعها نسيبتها وهما تتعاونان على حمل قدر يكفي لفرقة مجوقلة. أكلت يومها حتى التخمة، وأكل معي ديكسون وأكثر من عشرة مجنّدين من قدامى الجياع، أكلة لم يحلموا بمثلها في حياتهم. من يومها صارت نهرين طباختي الخاصة. ثم راحت تأخذ ثيابي لتغسلها وتعيدها مكوية مقابل بضعة دولارات.

نأكل في النهار ونداهم في الليل، عندما تنام المدينة وتهدأ الهواجس والوساوس. خرجت في طلعتي الليليّة الأولى بعد وصولي إلى تكريت بعشرة أيام. طلبوني لمرافقة المجموعة التي داهمت البيت الذي قيل لنا إن الدوري يختبئ فيه. لم نعثر عليه هناك. ووجدنا نفقاً تحت الأرض يقود إلى عربة من النوع الذي يربط إلى مؤخرة الشاحنات. عربة مثل بيت متحرك. وعرفنا، فيما بعد، أنه ترك المكان قبل قدومنا. كنّا نصل دائماً بعد أن يتركوا المكان. نسخة من فيلم «الهارب» بإنتاج عراقيّ.

XX

فتحت المؤلفة جارور مكتبها وألقت أمامي بمجموعة من الصحف وتقارير منظمات حقوق الإنسان. قالت لي:

- إقرئي.

كنت أعرف ما في الورق. أتربع على سريري كلّ مساء وأضع اللابتوب في حضني وأرحل في القارّات. أسمع عن معلومات استخباريّة خاطئة وتقارير مفبركة. استقالات بين مساعدي الرئيس. زلّات لسانه. أكاذيبه. نزاعات بين الخارجيّة والسي. آي. إي. حركات احتجاج داخل أميركا. أرقام بالمليارات. أقرأ في المواقع وأرى، بعينيّ، ما لا يمكن للشاشة أن تراه. أتفرج على أكفان تشحن إلى الوطن. نيران صديقة. قاعدة. زرقاوي. سرقات. نهب مبرمج. أحزاب طائفيّة. هجرات. صحافيون يُقتلون. علماء يُقتلون. أساتذة جامعات... نساء...

- نعم. ما حاجتك بي، بعد الآن؟ لديك أكداس من الوثائق لإكمال الرواية.

- لست أنا من يكتب بل رحمة. ألم تفهمي هذا؟

هل سلّطتها جدّتي عليّ. ماذا يفيد رحمة إذا هي فتحت دماغي وصبّت فيه كل القيم والمبادئ والتجارب الموجودة في رأسها؟ جدّتي مثل طاووس. جنون من نوع آخر.

تقول لي طاووس:

- إذا متّ لا تدفنوا هاتين اليدين معي.

أغمز لمرضعتي بعيني:

- هل رأيت عفريتاً يموت؟

- كلّنا نموت وياكلنا الدود. فإذا انقطع نَفَسي خذي يديّ وضعيهما فوق يديك... مثل الكفوف.

تفتح طاووس راحتيها أمامي وتتأسف على مهاراتها اليدويّة التي ستدفن معها.

- هل رأيت يا زينة يدين تفهمان في كلّ شغلة؟ طبخ وعجن وتطريز وخياطة وكنس وغسل هدوم ونفض سجّاد وكوي وزراعة وحصاد وحلب بقر ونتف دجاج وإطعام عصافير ونشر خشب وتضميد وطبطبة وبعبصة ودق إصبعتين ودق مسامير وضرب راشديات. ماذا تريدين أكثر؟

مثلما قررت طاووس أن تخلّف لي يديها، قررت جدّتي أن تورثني ذاكرتها. والمؤلفة سعيدة بهذا القرار لأنه يخدم روايتها. إنها لا تجيد غير الكتابة. العمل الوحيد الذي يستعصي على يدي طاووس. عمل نبيل في أعراف الناس. ليس كالكنس وتلميع الزجاج، لكنه يملك سطوة التزوير.

أهرب منها وأرى ظلّها ورائي. يلتصق بظلّي. يتطابقان فلا أعرف نفسي منها.

حتى جدّتي تخشاها. تراها تنتزع الكلام من شفتيها وتضعه على الورق. والورق لا ينقل بحّة الصوت وحرارة النَفَس. لذلك تبحث جدّتي عن ممرّ مباشر بين ذاكرتها وضميري، بدون تدخّل المؤلفة. لم تعد تعيش لغير هذا.

لا أدري كيف دخل في روع العجوز أن تاريخ عائلتي هو حبل نجاتي. سيعيدني إلى الدرب ويصحّح بوصلتي. حكايات تتشابك مع تاريخ الوطن. شخصيّات تتعطّر بفوح العراق. تربية لا تقبل الشطط. موظفون مسلكيّون وحرفيّون مخلصون ومعلمات أفنين العمر وراء غبار الطباشير. والنزاهة هي العنوان الشامل الكبير. أليس في العائلة خامل ولا سرسري ولا لصّ؟ وكيف يقوم فيلم مشوّق بدون هؤلاء؟

أنا شريرة الفيلم. عنصر التشويق. أساس الصراع لكي تستقيم الدراما. الطُعم الذي أغرى المؤلفة فدخلت على الخط. لا أدري أين وصلت في روايتها المسروقة منّي. هل ما زالت تكرهني وتنحاز إلى رحمة ضدّي؟ تفرزني خائنة وتفرزها أصيلة؟ ومن يضمن لها أن جدّتي لن تتنصّل من أناملها الضاربة على حروف الكومبيوتر وتذهب لملاقاة ربّها، في غفلة منها؟

ستموت رحمة. وستقتلني المؤلفة في النهاية. ستدبّر لي اختطافاً أو هاوناً أو لغماً تحت سيارة. وهي لو تركت الأمر لي لاخترت النيران الصديقة. بيدي لا بيدهم. لا أحبّ أن أشفي غليل أيّ مجاهد.

ستضع الكيس الأسود على رأسي وتطلق طلقة من مسافة قريبة، كما يتوجب على الخونة أن ينالوا الجزاء. هل أموت جبانة ولا أدافع عن نفسي؟

تعالي هنا، لا تذهبي. أعيدي تشغيل الكومبيوتر. ولا تقاطعيني في الكلام.

XXI

قيل لنا إنه كلب ابن كلب.

كان مسؤولاً أمنياً أيام النظام السابق. واحد من أولئك الذين جئنا لمحاسبتهم على الجرائم التي ارتكبوها في حق الأبرياء. شخص لا تأخذك به رأفة. وبوجوده وأمثاله مطلقي السراح لن ينهض العراق ويلهج بنشيد الديمقراطيّة.

حين انتصف الليل، انطلقنا إلى بيت ذلك الحقير في ثلاث سيارات بعد أن طوّقنا المحلّة. وترجل عشرون جندياً وحوّطوا البيت. كنت أراهم فهوداً يتحركون في الظلام، مسلّحين حتى أسنانهم، وأنا جالسة في الهمفي مع اثنين من الجنود لحراستي، أنتظر وأرقب ما يجري. ولم أكن خائفة بل متوترة. إنها مداهمتي الحقيقيّة الأولى.

كسر أربعة من الجنود الباب الحديديّ للحديقة ودخلوا إلى الطارمة وركلوا الباب الخشبيّ وصاروا في الداخل. وفي الداخل كانت هناك أُسرة نائمة وامرأة استيقظت وبدأت تولول. ثم ظهر رجل بدشداشة بيضاء ماداً يديه مفتوحتين نحو الجنود وهو يقول:

- Yes... Yes.

صرخوا فيه وأشاروا بأن ينبطح ففهم على الفور. انبطح وكأنه كان قد

تدرّب على مثل هذه المواقف. أمروه بأن يمد ذراعيه جانباً ففعل. وتقدّم جنديّ وربط يدي الرجل وراء ظهره بسلك من النايلون. ثم استدعوني من السيارة لكي أقوم بالترجمة.

تطلعت إلى «الهدف» والرشاشة M١٦ مصوبة إلى رأسه فلفتت انتباهي وسامته وخضرة عينيه، ثم تلك القامة المديدة التي زادتها الدشداشة مهابة. ليس في مقدور كل البشر أن يحافظوا على احترامهم وهم منكفئون على الأرض.

أخرج رقيب المجموعة ورقة من جيبه وطلب مني أن أسأل الرجل عن اسمه.

- شسمك؟

- محمد خليل.

- إسمك الكامل.

- محمد خليل محمد عيّاش العبيدي.

جاء صوته متموّجاً وكأنه يغصّ بكرامته. ومن غرفة داخلية سمعنا بكاء أطفال. ولم يكن الاسم الذي أعطاه «الهدف» مطابقاً لذاك المسجل في الورقة. ثم بانت من الباب المفتوح امرأة مكشوفة الشعر في دشداشة فاتحة وتوجهت نحوي بالكلام بنبرة ملتاعة:

- دادا، والله رَجلي ما مسوّي شي... والله ما مسوّي شي.

إرتجفت شفتاي وبذلت جهداً للسيطرة على انفعالي. ومن تلقاء نفسي، بدون العودة إلى الرقيب، قلت وأنا أمد يدي وأدفع، بعيداً، السلاح المصوّب إلى رأس زوجها:

- ماكو شي لا تخافين... مجرد تحقيق بسيط.

عاد السرجنت وسألني:

- هل هذا هو الرجل الذي نريد؟

- إسمه ليس كذلك.

طلب مني أن أسأله عن بطاقة هويته.

- وين هويتك؟

ما كاد يرفع رأسه نحو زوجته حتى صرخ السرجنت وهو يدفع ببوز البندقية إلى جمجمة الرجل:

- وجهك في الأرض!

ولم يكن «الهدف» في حاجة إلى ترجمتي لكي يفهم المراد منه. سارع إلى وضع خدّه لصق البلاط الأصفر العاري المحبب بنقاط سود.

تدخلت ثانية وقلت بصوت خافت لقائد المجموعة:

- على مهلك، إنه يطلب من زوجته إحضار الهوية.

وتلقيت نظرة عرفان من العينين الخضراوين قبل أن تعودا إلى الأرض ويعود الرجل إلى مخاطبة زوجته:

- هاتي الهوية بسرعة من المجرّ تحت التلفزيون.

ذهبت المرأة تبحث عن الهوية فلم تعثر عليها. كانت مرتبكة وفي غاية الجزع. ومن هناك صاحت بنبرة ملتاعة:

- ما دا ألقيها... وينها... وين حطّيتها؟

ترجمتُ ما قالت للسرجنت بينما كان الرجل المنبطح على الأرض يكزُّ على أسنانه وهو يوجّه الكلام إلى زوجته:

ـ يا مَرَة شوفي بالجَكْمَجة مال التلفزيون.

عادت الزوجة، بعد دقيقتين تحمل الهويّة. قرأتها وناولتها لرقيب المجموعة وأنا أُشير له إلى الاسم الذي لا يطابق الورقة بتاتاً. لا الاسم الأول ولا اسم الأب ولا الجد ولا اللقب. وأمام خانة المهنة قرأت: مدرّس. وعدت أؤكد لزميلي بأنه ليس الرجل المطلوب.

إرتخى الرقيب الذي يحمل على كتفه ثلاثة خيوط على شكل ثلاث زوايا حادة، وأمر الجنديّ أن يقطع وثاق اليدين. ثم أنهضوا الرجل وأجلسوه على كرسيّ، وعاد الضابط وطلب منه اسمه الكامل للتأكد من أنه صاحب الهوية. وكرّر الرجل الاسم. وهنا نبّهت زميلي إلى أن الرجل يعمل مدرّساً، فسأله عن مهنته.

ـ أنا أُستاذ في جامعة تكريت.

سأله الرقيب هل يعرف فلاناً، صاحب الاسم المكتوب في الورقة، فأجاب بالانكليزية: «نو».

- Do you speak English?

- Yes I do.

وهنا انتهز الرجل الفرصة ووجّه كلامه لي بالعربية:

ـ أُختي، رجاء، اشرحي لهم أنني لست من هذه المدينة ولا أعرف أحداً هنا. هذه هي سنتي التدريسية الأولى في جامعة تكريت.

تقدّم السرجنت وانحنى أمام الرجل وصافحه قائلاً بنبرة مسرحيّة:

ـ سيدي، أرجو أن تقبل اعتذاري.

أجاب ربّ البيت الذي كسرنا بابه قبل ربع ساعة:

- No problem, it's o.k.

رددها عدّة مرات بينما كانت عيناه تدمعان وهو لا يصدّق أنه قد نجا. وأنا أيضاً لم أُصدّق. وتأثرت بالموقف المؤلم الذي كنت شاهدة عليه.

خرجنا من الباب المكسور بعد أن أعطينا الرجل ورقة لكي يراجع دائرة الشؤون الاجتماعية لتعويض بابه. ولم نعد إلى قاعدتنا.

ذهبنا تلك الليلة وكسرنا الباب الخارجي للبيت المجاور. ثم طرقنا على الباب الداخلي وخرج لنا رجل عجوز محدودب الظهر يرتدي دشداشة بيضاء، أيضاً، ويحمل بخّاخة من تلك التي يستعملها مرضى الربو، ووقفت وراءه امرأة تماثله في السنّ. ولم يكن في البيت غيرهما. وبعد التدقيق في الهوية تأكدنا أنه ليس «الهدف». فاعتذرنا ومنحناه ورقة للمراجعة بخصوص ثمن الباب وذهبنا لنكسر باباً آخر.

قبل أن يوجّه جنودنا بساطيلهم لركل باب ثالث وتهشيم أقفاله، سمعنا صوت سيارة مرّت بسرعة خاطفة في الشارع الموازي. كان حظر التجوّل سارياً منذ التاسعة ليلاً ولا تجرؤ ذبابة على مغادرة مخبئها. تركنا كل شيء وجرينا إلى عرباتنا لنطارد السيارة الهاربة، ولم نلحق بها إلا بعد أن توقّفت أمام قسم الطوارئ في مستشفى تكريت.

عندما وصلنا إليه، كان السائق يسحب من سيارته رجلاً مسنّاً ويسنده إلى صدره ويقوده إلى الداخل. دخلنا وراءهما وتأكدنا أن العجوز مريض، أصابته نوبة قلبية ويحتاج إسعافاً. دقّقنا في الهويّات ولم يكن بينها ذلك الكلب ابن الكلب الذي نبحث عنه.

عدنا إلى القاعدة قبل الفجر بقليل، ولم أنم تلك الليلة. نهضت إلى عملي في السادسة صباحاً وفي عينيّ صورة المدرّس الذي يلصق خدّه بالأرض، يداري كرامته الجريحة في بيته وأمام امرأته وأطفاله... وفوق هذا يطلب المعذرة منّا. صورة كانت سبباً لليالٍ طويلة من الاحتصار.

بقيت في تكريت ثلاثة أشهر أصابتني بالكآبة. كانت سخونة الصيف لا تُطاق. والبقّ ينهشني ليلاً وأنا نائمة في الشرفة بسبب عطل أجهزة التبريد والدبابات تمرّ قرب رأسي في طريقها إلى المداهمات الكبرى. وفوق هذا لا يوجد حمّام ولا ماء حار ولا بارد. ما أتعس عيشة القصور!

حتى حاجتي كنت أحبسها ولا أعرف كيف أقضيها، مثل الخلق، ولا مرحاض في المكان الذي أنام فيه.

- إستعملي كيساً من البلاستيك.

هكذا نصحني أحد العاملين في المطبخ. وكنت ألتزم النصيحة وقت الشدّة. وفي غيرها من أوقات أمشي إلى القصر الجانبيّ وأُزاحم الجنود على بيوت راحتهم. إنها مثل مراحيض المدارس الثانويّة. قذرة وعلى جدرانها كتابات ورسوم بذيئة. وهناك دائماً من يقف لك في الخارج ويتلصص عليك من الشقوق أو يتطفّل بسؤال خبيث أو يحتجّ إذا تأخر خراؤك في النزول.

لكل تلك المنغصات، خرجت من حنجرتي صرخات فرح بدائية يوم تبلّغت بقرار نقلي من تكريت إلى المنطقة الخضراء في بغداد.

XXII

- ما رأيك بأن نداهم بيتها؟

ظننت دونوفان، نقيبي الجديد في المنطقة الخضراء، يمزح وهو يقترح عليّ الذهاب لمداهمة بيت جدّتي في ذلك اليوم الساخن من تموز. وفي تموز يغلي الماء في الكوز، كما يقول البغداديون في أمثالهم. لذلك كنا، ليلتها، جالسين على حافة البحيرة الاصطناعية ونحن نمدّ أقدامنا في مائها.

لم يكن ماء البحيرة يصلح للسباحة بعد أن بزغت فيه الأعشاب وطفت على سطحه الراكد بقع خضراء على زرقة.

حكى لنا مجنّدون وصلوا إلى هذه المنطقة، بعد الحرب مباشرة، أن القصور كانت شيئاً من ألف ليلة. عشرات الخبراء الزراعيين اعتنوا بالحدائق وسمّدوها وجلبوا لها الأزهار النادرة من بقاع العالم. أما البحيرات فكانت صافية كالمرايا، يسرح فيها الإوز وأسماك النهر. ثم جاء حرس المسؤولين الجدد وأعضاء مجلس الحكم وعاثوا فيها على هواهم. اختفى خبراء الروز والرازقي وتحولت طيور البحيرة إلى باربكيو.

لم أفهم قصد السرجنت دونوفان. كنت قد سألته عن إمكانية أن أذهب لزيارة جدّتي في بيتها الذي لا يبعد عن منطقتنا سوى نصف ساعة بالسيارة. لكنه كان يقصد ما يقول. لم يمانع في الزيارة وإنما خشي إثارة

انتباه الجيران وتعريض جدّتي للشبهة والخطر. قال إنها قد تصبح هدفاً للإرهابيين إذا عرفوا أن لها حفيدة تعمل مع الأميركان.

- والحل؟

- إذا أردت رؤيتها فليس أمامنا سوى حلّ واحد: أن نداهم بيتين أو ثلاثة في الشارع، أحدهم بيتها. وسيبدو الأمر جولة تفتيش عادية.

على طاولة العشاء، تلك الليلة، تباحثنا في الأمر مع جنود من الوحدة نفسها. كنا نعبّ الكوكا كولا المثلجة، ونأتي على كاسات الجيلي لكي نبرّد أجسامنا. نأكل ونشرب ونزداد تعرّقاً. وفي الليلة نفسها رسمنا الخطّة وحدّدنا الموعد المناسب. سنذهب لإجراء تحقيقات في المنطقة، بحجّة البحث عن مطلوبين ثم نداهم بيتها. والمداهمة تستغرق، في العادة، أكثر من ساعتين. وسأدخل مع الجنود للترجمة ثم أتركهم يتمدّدون على أرائك غرفة الخطّار، يأكلون البطيخ ويتفرجون على صور القديسين. وأجلس أنا مع جدّتي رحمة لأشبع منها.

تركت للمؤلّفة أن تصف، بأسلوبها المنمق، ما دار في تلك المداهمة الشكليّة. قمت من أمام الشاشة وأخليت لها لوحة الأحرف. أردت أن أتفرج على المشهد من خارج النص، أقوم بدوري الحقيقيّ الذي هو أبعد من صفّ الكلام. واستراحت هي لانسحابي وبدأت تكتب:

قطعة الخزف الزرقاء أُمّ السبع عيون ما زالت معلّقة في مكانها في المدخل، ورائحة فانوس الكاز تهبّ على الداخلين لأن الكهرباء مقطوعة. والمساء في الخارج يحوّل شوارع الحيّ إلى مدينة أشباح، خصوصاً عندما يسمع الأهالي هدير مصفحات الأميركان.

كانت العتمة غطاء يناسب المهمّة التي جاءت زينة ورفاقها من أجلها.

وفتحت رحمة لهم الباب بنفسها بعد أن طرقه أحد المجندين بفظاظة. ودخل ثلاثة منهم أولاً، وتبعتهم زينة وأغلقت الباب. ورغم ظلام المدخل الذي تتأرجح فيه ذبالة شمعة وحيدة، سارعت إلى التأكد من إسدال الستائر. وبقي الآخرون في السيّارات المصفحة.

في صدر غرفة الجلوس كانت صورة كبيرة للجدّ تتوسط الحائط. صورة جميلة وقديمة له وهو بالبزّة العسكرية ونجمات العقيد. في البداية تصوّرت زينة أنها صورة عمّها الأصغر، ثم تناولت الفانوس واقتربت من الصورة. لم يكن شعر جدّها يوسف قد ابيضّ، بعد، ولا تراجع عن مقدمة الرأس كما عرفته.

استعدّت الجدّة للمداهمة الكاذبة بعد أن أخبرتها حفيدتها الأميركية، هاتفياً، بالخطّة. مانعت في البداية ولم تفهم ما دَخْلُ المترجمين بمهمّات التفتيش التي يقوم بها المحتلون، لكن زينة ردّت بأن مراقبة المداهمات تقع في صلب عملها. ولعلّ شوق رحمة لرؤية محبوبتها زيّون غلبها وعطّل حاسّتها.

ومع كل الاستعداد والقلق المسبق، شهقت العجوز ولطمت خدّيها وهي ترى حفيدتها بالبزّة العسكرية المموّهة ذات اللون الحليبيّ الفاتح. لم تعرفها في البداية والخوذة فوق رأسها. تمنّت لو كانت المرأة المألوفة الواقفة أمامها تتنكّر بهذا اللباس، لو أنها استعارت الخوذة لحماية رأسها من طلقات طائشة لا تخلو منها سماء بغداد. لكن ما تراه عيناها هو ما هجس به قلبها من قبل.

لا وفّقك الله يا زينة يا بنت بتول... ليتني متُّ قبل دخولك عليّ هذه الدخلة السودة.

إرتبكت الحفيدة حرجاً أمام رفاقها، لكن أياً منهم لم يكن يفهم ما تقول العجوز. وتقدمت من جدّتها تريد عناقها فصدّتها ومضت إلى غرفة داخلية. لحقت بها زينة إلى غرفة نومها، تلك الحجرة الفسيحة المربّعة التي تتدافع فيها الذكريات والضحكات، وأصداء الشجارات العائلية والابتهالات وترانيم الماضي.

كانت رحمة مهدودة الحيل على ذات الكرسي الواطئ القديم ذي المسندين الخشبيين العريضين، ترنو بجفنين متهدّلين إلى المجنّدة الواقفة في الباب. كأنها تتمنّى لو تكذب عيناها، لو تصابان بالعمى، لو تشير البنت إلى مكان ما وراء ستارة الشباك وتقول لها: «انظري هناك... إنها الكاميرا الخفيّة». لكنها لم تكن الكاميرا الخفيّة. وزينة لا تشير إلى أي مكان ولا تخلع الثياب التنكّريّة، بل تغلق الباب وراءها ويخطو شبحها في عتمة الغرفة نحو جدّتها. ترتمي في حضنها. تتشبث بها. تصرّ على عناقها. والعجوز، مثل طفلة حردانة، تتمرّد على ذراعي حفيدتها.

إحتضنت زينة جدّتها وهي تهزّها جيئةً وذهاباً وتغنّي لها:

- ديل ديل ديلاني... بعشيقة وباحزاني...

راح باباع الضيعة

إشترى كشمش وقضامي...

تسرق البنت ترنيمة الجدّة التي كانت تهدهدها بها أيام الطفولة. تنتشل الكلمات والنغم والحركة الإيقاعيّة من البئر وتنسبها لنفسها. انقلبت الأدوار بين المرأتين. ورحمة تقاوم بكل ما تملك من ضعف ثم تستسلم للكفّ التي تمسح على رأسها وخدّيها البليلين وتجاعيدهما الكثيرة.

ـ يا حيفي عليك يا زيّون... يا ويلي على أصلك!

ـ جدّتي، اسمعيني، لا تفهمي الأمر بهذا الشكل.

ـ بأي شكل تريدينني أن أفهمه؟

ـ نحن نقوم بعمل جيد في هذا البلد. صدّقيني...

سحبت العجوز رأسها من فوق صدر زينة وتطلعت إليها باستهجان.

ـ لا تتفوّهي بمثل هذا الكلام في الغرفة التي أسلم فيها جدّك الروح. احترمي ذكراه على الأقل...

ـ هنا مات؟

ـ هنا فوق هذا السرير ... كانت نعمة ربّانيّة أن يموت قبل أن يرى الاحتلال ويراك.

لم تر زينة دمعة العجوز في العتمة، لكنّها شمّت رائحتها. شاهدت صوت جدّتها شاحباً ومتهدجاً:

ـ وهنا، فوق هذا السرير نفسه، كنت تسرحين وأنت طفلة... فلمّا أخذوك منّا مرضنا وعجّزنا وصرنا أنا وجدّك يتيمين.

ـ لماذا البكاء الآن وأنا بقربك؟

ـ ليتهم أخذوك وأحسنوا تربيتك يا بنت بنتي.

ـ أنا على حطّة يدك... لم أتغيّر.

ـ تغيّرت وصرت خضراء، من أهل تلك المنطقة.

بيدها، تمسح زينة الدموع على الخد المتهدّل. تمرّر كفّها على الشرشف المثقل بسخونة الغرفة. على المخدّة في اليمين، ناحية الشباك.

هنا كان يضع جدّها رأسه وهو يمسك بالجريدة. لا تذكره بدون النظّارتين والجريدة. يقرأ بصوت عالٍ ويعلّق ساخراً على ما يقرأ. كأن صوته ما زال في مكان ما من الغرفة. وجدّتها تستمع إلى تعليقاته وتسارع إلى وضع سبابتها متعامداً مع شفتيها. تهمس بجزع حقيقيّ:

- هس... تريد تودّينا بمصيبة يا رجّال!

تطلعت زينة إلى الزاوية المقابلة للسرير، حيث تتقد شمعة أمام صورة مريم أُمّ العجائب. لا تزال الشمعة تتأرجح منذ تركتها قبل خمس عشرة سنة. والصورة مستقرة في مكانها فوق المنضدة الصغيرة، مسنودة إلى الجدار، وتحتها المفرش الكروشيه الأبيض ذاته. لكن النذور الذهبية التي كانت مصبوبة على يدي العذراء وتاجها اختفت من مكانها. لا شيء يلمع في الصورة.

قامت زينة واقتربت منها لتتأكد أكثر.

- هل سرقوا نذور العذراء؟

- لا. أنا بعتها...

- جدّتي! بعتِ ذهب العذراء؟!

بقدرة قادر استعادت العجوز ضراوة صوتها:

- وهل كانت العذراء، مبارك اسمها، تحتاج إلى الذهب ونحن في ضائقة الحصار؟ بعت الذهب ودفعت لطاووس أجرة طقم الأسنان.

تذكّرت الحفيدة العائدة أن سنوات سوداً مرّت من هنا. كانت تعرف أن العائلات باعت أثاث بيوتها، وأبواب حجراتها وحديد الشبابيك وقعدت على الأرض. لكنّ ذلك زمن ولّى. ونظرت إلى جدّتها رحمة بعينين

حانيتين وكأنها تقول لها: «لا تقلقي... لقد جئنا ومعنا الخلاص». لكن العجوز التي تقرأ وهج النظرات في العتمة وتكشف الأفكار كعرّافات بابل هزّت رأسها وتمتمت:

- الآتي أعظم... سترك يا رب!

على الجدار، فوق رأس السرير، لمحت زينة صليباً أبيض مطعّماً بالصدف، مؤطّراً فوق خلفية من القطيفة الحمراء. كأن الحجرة زاوية للصلاة والعبادة لا غرفة للنوم. وفوق الإطار برز مسمار أسود ناتئ من الحائط، وتحته مستطيل باهت اللون لصورة منزوعة حديثاً.

- صورة من كانت هنا؟

تطلعت رحمة إلى حيث تشير زينة. هذه البنت لا يفوتها شيء.

- جاءت طاووس، ذات يوم، وقالت لنا إن صدّام يزور الناس في بيوتهم. يطرق الأبواب ويدخل مع رجال حمايته كالقضاء والقدَر. يدور في الغرف. يرفع أغطية الأواني في المطبخ لينظر ماذا يأكل أهل الدار. نصحتنا بأن نشتري صورة له ونضعها فوق التلفزيون. لكنّ جدّك رفض وتشاجرنا ثم عاد وقبل على مضض. وجاءنا حيدر بصورة مؤطرة اشتراها بكذا مئة دينار. قال لنا إن من الأفضل أن نعلّقها في صدر الغرفة لكي نتّقي الشرّ. علّقناها فوق الصليب. لكنه لم يأت. ولما انتهت الحرب رفعناها.

مع هبوط الليل تزداد الوحشة في غرف البيت الكبير وتشعر زينة بالقلق على جدّتها:

- ألا تخافين فلتان الأمن في المدينة؟

- ممّن أخاف؟ طاووس تأتيني كلّ يوم، وأهل الشارع يعرفونني من

أربعين سنة. أما زعاطيط هذي الأيام فهم لا يزعجونني لأن مهيمن أوصى جماعته بي.

- من؟

- مهيمن، ثالث أبناء طاووس وشقيق حيدر... كان أسيراً في حرب إيران وهو اليوم في جيش المهدي.

لم تكن تلك عتمة الغرفة. نزلت غشاوة سوداء على عيني المجنّدة الأميركيّة، وصعدت الحمّى إلى خدّيها. كيف سيكون موقف النقيب دونوفان عندما يعرف أنّ لمترجمته الأثيرة أخاً في جيش المهدي؟

XXIII

لم أعد لزيارة جدّتي في بيتها. قالت لي وهي تحتضنني على الباب وتغصّ بدموعها إنها ستكسر رجلي إن أنا رجعت مع «هؤلاء العجايا». تطردني وتبكي وتحمد ربّها الذي أغمض عيني جدّي قبل أن تبصرا «خاكي الخزي» الذي عادت به حفيدته الأميركية.

عدت إلى الخضراء التي أصبحت أُكنّى بلونها. وجدت عند نقطة التفتيش هرجاً وأصواتاً نسائية تلعلع. كانت ثلاث محجبات من نساء البرلمان يعترضن على شمشمة كلابنا لثيابهنّ. لم أودّ أن أتورط في الترجمة وانسللت إلى وحدتي. ما الذي يجري هنا؟

رأيت شون وهاملتون وبيل يتسلّون بأداء فصل تمثيليّ، وسط حشد من المجندين والمجندات الذين يقهقهون بأصوات صاخبة. عندما يضجر الجنود يفعلون أي شيء لكي تستيقظ البراكين وتتساقط النيازك من الفضاء. كان الأول يحمل مضرب بيسبول ويوجّهه عمودياً إلى جبهته. والآخر يولول وهو يرفع يده اليمنى ويهوي بها على صدره في إيقاع منتظم. أما ثالثهم فكان يقفز في مكانه وهو يكرّر: «هيدا... هيدا...».

لم أفهم التمثيليّة على الفور. ثم قيل لي إنهم عادوا للتوّ من دوريّة حراسة في الكاظميّة حيث شاهدوا مراسم عاشوراء، وها هم يقلّدون ما

رأوا. وفهمت أن بيل كان يصرخ «حيدر...حيدر» ولكن بطريقته الخاصة. ينطقها كما سمعها ولا يدرك معناها.

لا أدري ما دهاني، فالمزحة تبقى في نهاية الأمر مجرد مزحة. إن الجنود متعبون والصيف حار، وقليل من الترويح لن يضرّ نفساً. لكن ضحكاتهم استفزتني رغم أن الدين لم يكن ديني. لنقل إنّ وعيي تشكل على أصوات مؤذّنيه. لذلك تصرفت مثل أي متطرف غيور على العقيدة.

- تعال يا شون نؤدي تمثيلية المصلّين أمام حائط المبكى. أُولئك الذين ينحنون ويعتدلون ثم ينحنون ويعتدلون... مثل اللعب الأوتوماتيكيّة.

لم يكن صوتي هو الذي يخرج من بين شفتيّ. لعله صوت أبي المذيع، أو صوت طاووس، أو المؤلفة التي تتقمصّني وتقلّد نبرتي.

تطلّع الجميع نحوي باستغراب. هل سكبت سطل ماء على رأس أحد؟ انتهت التمثيليّة من تلقاء نفسها وخَفَتَ الضحك، وجاء هاملتون ليضع يده على كتفي مطيباً خاطري:

- كنّا نمزح... أنت معنا أم معهم؟

- لست مع الحمقى.

- تعالي أدعوك إلى فنجان قهوة في الكانتين.

جلسنا إلى طاولة مع عدد من المجندين والمجندات الذين وصلوا حديثاً. ذهب هاملتون ووقف في الصف. غبتُ عن المكان. تذكّرتُ عمّتي جوزة يوم قطعت شارع الجمهوريّة زحفاً على ركبتيها. كان شلل الأطفال قد أصاب ابنها ونذرت أن تزحف من ساحة الخلاني إلى كنيسة «مسكنتا»، قرب ساحة الميدان، لعلّ العذراء تشفق عليها وتشفع لابنها

الوحيد. وصلت بساقين مسلوختين لكنها كانت مستبشرة وهي تترك نفسها لمانوش، حارسة الكنيسة العجوز، تكمل الطقس. وكانت مانوش عجوزاً قصيرة وسمينة، تحمل عدّة الشغل معها حيثما تنقلت. والعدّة سلسلة حديدية غليظة تنتهي بحلقة متحركة.

تأتي النساء إلى مانوش متوسلات دامعات من التهيّب والخشوع. تهدئ من روعهن وتضع السلسلة حول رقابهنّ وتحكم إغلاق الحلقة وهي تتمتم بصلوات لا تُسمع منها سوى حروف السين والصاد. كلمات تقطعها التنهدات ودقات النواقيس. وقد تعاند الحلقة ولا تنفلت من تلقاء ذاتها. يشحب وجه المرأة المربوطة وتخرج وهي مضطربة. لكن السلسلة حول رقبة عمّتي انفتحت. طفرت دموعها وشكرت ربّها الذي نظر إلى شدّتها وسيسبغ عليها رحمته.

قرّبت مانوش صدرها من عمّتي، تدسّ في فتحة ثوبها كدسة من الدنانير.

أنا مع من؟

عاد هاملتون يحمل القهوة وينقر على الطاولة لأصحو. حكيت له ما كنت أُفكّر فيه. واستمع شركاؤنا في الجلسة إلى واقعة عمّتي جوزة. اعتبروها «فانتاستيك»، «أميزينغ»، حكاية للتسلية قبل النوم. ولم يفهمها سوى مانويل، الجندي البيروفي الأصل ذي الشعر الحالك الكثيف الذي تولّعت به ديبورا. كان يتنطنط في كرسيّه متحمساً وكأنه يحفظ الأغنية من قبل. روى لنا وقائع درب الصليب في الحي الفقير الذي نشأ فيه في ليما. كان اختيار الكاهن يقع، دائماً، على عامل البريد خوزيه ليقوم بدور المسيح وهم يعيدون تمثيل واقعة الصلب.

- لأن اسمه خوزيه، يعني يسوع؟

- لا، ليس بسبب الاسم. نصف رجال البلد اسمهم خوزيه. وإنما لأنه كان الوحيد في الحيّ الذي يملك عينين زرقاوين.

نزعوا حقيبة الرسائل عن كتف خوزيه ونصّبوه مسيحاً محلياً. «لوكال جيزز». وكان الشمامسة يرفعونه على الصليب، في جمعة الآلام، ويثقبون باطن كفّيه بالمسامير ويغرسون إكليل الشوك فوق جبهته بلا رحمة، وهو صاغر يكزّ على شفتيه لكي يكبت صرخات الوجع. الأنبياء لا يبكون كالأطفال. ولما تنتهي المراسم يظلّون يعالجونه طوال السنة حتى تلتئم جروحه ويصبح جاهزاً للصلب في الفصح التالي.

- مانويل، أنت مع الشمامسة أم مع خوزيه؟

- مع خوزيه.

- وأنا مع عمّتي التي عادت من الكنيسة مسلوخة الركبتين لكنها مرتاحة البال.

لمّا جاء الأمر بنقلي إلى الموصل، انقطع الاتصال بيني وبين جدّتي إلاّ من مكالمات متباعدة. كان الإرهابيون ينشطون في المدن، وزادت الحاجة إلى المترجمين . الموقوفون بالآلاف وعلينا أن نترجم أثناء التحقيق معهم. عمل كثير لكنّ الأجواء أهدأ من العاصمة.

في بغداد كانت المدينة تشتعل والخضراء آمنة. «دار السيّد مأمونة». هكذا تصوّر نوري السعيد. هكذا تصوّرنا ونحن نعيش وراء أسوارها.

وفي الموصل تغيّرت حياتي، ودخلت إليها لياقات وعلاقات اجتماعية. تعرفتُ إلى فتيات من القرى المجاورة. خريجات جامعيات لا يجدن

عرساناً. يحلمن بالهجرة إلى أميركا للزواج. يلفظنها «أمريكو» ويتوهّمن أن كلّ رجالها مليونيريّة.

إلتقيت، أيضاً، بمترجمين آخرين يعملون مع المارينز، بينهم شاب من أهالي البصرة، عاش في بوسطن ويتكلم الإنكليزيّة بأنفة لورد بريطانيّ.

- أين تعلمت هذا التغريد يا مالك؟

- في أُكسفورد.

كان يحمل الدكتوراه في الأدب المقارن، وكتب أُطروحة عن الأساطير لدى شكسبير والسيّاب. فلماذا ترك البلبل الغرّيد فضّة المعاني وجاء إلى تَـنَـك الاستجوابات الأمنيّة؟

صرنا أصدقاء. أدعوه «مالك الحزين» ويدعوني «زينة الحنينة». كان مصاباً بالضجر المزمن واليأس من واقع الحال. نتحادث طويلاً ونتناقش في الوضع الذي وصل إليه البلد. ويختم مالك الحزين النقاش بعبارة لا يحيد عنها:

- أكلنا خرا يا زينة.

الجيش أفسد أخلاق شكسبير، أيضاً.

ظلّ «اللابتوب» صديقي الأقرب. أكتب عليه رسائلي إلى كالفن وأتلقى عليه سيلاً من النكات السياسية المرّة كل يوم. صار العراق مصنعاً للنكات. مصنفات كردية ودليمية ومصلاوية وناصرية وقصص محششين. لكل طائفة مؤلفوها المتخصصون في النكات التي تسخر من الطائفة الأخرى. نكات على الرئيس وعلى السياسيين الذين جاؤوا في معيّتنا. كلهّم عراة ومتساوون تحت عباءة النكتة. إنها الديمقراطية الوحيدة التي تحققت هنا.

أدور في القاعدة باحثة عن مالك الحزين لأقرأ عليه قائمة المفردات الأكثر تداولاً بين العراقيين. يتطلع الولد الأكسفورديّ نحوي بإشفاق وأنا أُتحفه بآخر ما نزل على بريدي:

- «مولّدة. ماكو كهرباء. ماكو ماي. إزدحام. مفخخة. حرامي. ٢٠ لتر. ثلاثة دفاتر. حصّة. عركة. مات. إنخطف. فلت. إغتيال. إيراني. دستور. واوي. بنزين. علاّس. صولاغ. مخموط. إنفجار. ألله يرحمه. خطيّة. هاون. بريمر. أمريكان. تحشيش. ماكو شبكة. كلاوات. فيدراليّة. سلامات».

- ألم أقل لك إنّنا أكلناه يا زينة؟

XXIV

وصلت جدّتي إلى عمّان في يوم ثلجيّ من أيام شباط. رأيتها ممدّدة في المقعد الخلفي لسيارة يقودها شاب تصوّرت أنه حيدر. كنت أقف في انتظارها على الرصيف. ولما انحنيت على الزجاج لأقول لها «الحمد على السلامة» لاحظت أن السائق يشبه حيدر، لكنّه أكبر سناً.

كانت الساعة قبل الخامسة عصراً. لكن عتمة خفيفة تهدّلت على الثلج وأحالت بياضه إلى لون أزرق مضيء. وفي ذلك الفوسفور الخلاب رأيته يترجّل من السيارة ويفرد قامته النحيلة التي تيبست مفاصلها من جلسة الطريق الطويل. فتح الباب الخلفي وأخذ بيد جدّتي ليساعدها على النزول. وبدا لي، بلحيته الناعمة وبالغترة الصفراء الملفوفة حول رقبته، أشبه براهب من زمن العبادات البدائية.

حمل مهيمن، أخي الآخر المفترض، حقيبة جدّتي وصعد بها إلى الشقة التي كنت قد استأجرتها في دير غبار. المكان هنا أهدأ من الشميساني والصويفية، وأقل ازدحاماً بالعراقيين. لم أكن، أمام الجيران الذين يسكنون الطابق نفسه، سوى واحدة من الطيور العراقيّة الباحثة عن سماء آمنة. نازحون صار الأُردن ملجأ لهم. أرض يلتقي فيها الأمهات والآباء بالأبناء الذين تشتّتوا في المهاجر البعيدة.

لم يكن مهيمن يعرف عنّي أكثر من أنني ابنة بتول. بتول ابنة رحمة. ورحمة مريضة وتحتاج عملية جراحية وليس لها سوى حفيدتها التي جاءت من ديترويت لكي تساعدها. إنها الرواية التي اتفقت جدّتي مع حيدر عليها. هل كانا يخافان عليّ من مهيمن؟

لم أعرف حيدر بما يكفي لأثق فيه إلى درجة تسليمه رقبتي. لكن جدّتي كانت توليه ثقة عمياء، وتسمّيه ابنها الصغير. تخطط معه وتأتمنه على كل شيء. وأنا تعبت من المخططات البوليسية للخروج من المعسكر، ومن التحايل على التعليمات المشددة للجنود وللمترجمين بالأخص. كانوا يصطادونهم مثل العصافير وينحرونهم مثل الخراف. لا أحبّ هذا المصير، لكنني أريد أن أشبع من جدّتي رحمة. أمكث معها بدون جنود في الغرفة المجاورة. أسمع تاريخ عائلتي تقطّره في وعيي كما تقطّر طاووس ماء الورد. تحكي وأنا أصغي وأحفظ. وعندما تتعب من الكلام تتنهد بعمق وتنظر نحوي كمن ينتظر معجزة. هل كان المطلوب منّي أن أقف وأهتف بسقوط أميركا؟

يوم قال لها الطبيب إنها تحتاج عملية لتغيير مفصل الركبة، وجدت الحلّ مرسوماً أمامي. ستجري جدّتي العملية في الأردن. بلد قريب صار ملجأ لأغلب جرّاحي العراق. هرب المئات منهم من القتل واستقروا في عمّان ودبي والشام وصنعاء. هكذا رحنا نخطط للرحلة، كلّ منا تسافر من جهة ونلتقي هناك. هي في سفرة علاجيّة وأنا في إجازة من الجيش لمدة أسبوعين. فاصلة من الزمن تكفي لأن تحفر في دمي وشماً اسمه مهيمن.

عرفت أنه ابن طاووس، المرأة التي أعطتني ثديها عندما مرضت أمّي بالتيفوئيد، فصرت أختاً بالرضاعة لأبنائها. ولم أكن قد استوعبت حكاية

الإخوة الذين طلعوا لي من حيث لا أدري، حين بزغ مهيمن أمامي مثل سهم موجّه حسن التصويب. ما الذي يجعل جدّتي تضع ثقتها برجل من جيش المهدي، يأتي بها إلى عمّان؟

كان يمكنها أن تأتي مع حيدر، مثلما جاءت معه للقائي في تكريت. لكن حيدر، الذي يشرب العرق كل ليلة، هرب من مدينة الصدر بعد استقواء جيش المهدي وذهب إلى خاله في الكوت. وتولى مهيمن المهمة. سيسير بالعجوز النصرانيّة لكي تتعالج في عمّان وترى حفيدتها الآتية من أميركا، ثم سيعود بها إلى بغداد. يجتازان سوية الطريق البريّة التي تمرّ بمثلث الموت. رحلة مرتجلة هزّت سدرة حياتي، وطيّرت كل غربان الوجوم التي عشّشت فوق أغصانها.

حرّك مهيمن تيّارات داخلية في روحي. ولم أكن صغيرة ولا بالسذاجة التي تجعلني أعشق رجلاً من النظرة الأولى، لكنّ اسمه كان فخّاً جميلاً منصوباً بدون قصد. وأنا في عمّان، منتزعة من وحدتي العسكريّة وآمنة من تهديدات الموت في بغداد، أعيش حالة لطيفة من انعدام الوزن. أتمتع بلعبة حجب مهمّتي في الجيش عن مهيمن وعن جيراني. أتظاهر بأنني مغتربة عراقيّة اشتاقت للوطن والأهل.

مهيمن!

أحببت اسمه قبل أن أُحبّه. كان هو الشص الذي سحبني إلى توتّر شخصيته وأسلوبه الخاص في الكلام. شخص نسيج وحده. عبارة لم تسعفني بها المؤلفة، وجدتها بنفسي. هل أحببته لصفاته أم تحدياً لقدرتي على الاقتراب من خصومي؟ أي فيلم كان ذاك الذي تعشق فيه الرهينة خاطفها؟

لم أكن رهينته. سرتُ كالمنوّمة إلى نهره العميق المُمتلئ بالطمي وخضت

لم أكن رهينته. سرتُ كالمنوّمة إلى نهره العميق الممتلئ بالطمي وخضت فيه بلا وجل. استأمنته وهو عدوّي. وانجذبت إليه وهو أخي. فماذا سأكتب لكالفن بعد أن غلبتني الموجة؟

XXV

- مهيمن، من أين لك هذا الاسم الغريب؟

أسأله وأنا أسحب نفساً من النارجيلة في مقهى «كان زمان»، أمدّ الساقين على الكرسي الواطئ المضفور من القش.

- شلون غريب يا أختي العزيزة؟ المهيمن من أسماء الله الحسنى. وأبي اختار لكل واحد منّا نحن الثمانية اسماً ذا مرجعيّة دينيّة، وكان نصيبي عبدالمهيمن.

مهيمن لا يدخّن لكنّه ينفخ لهباً من صدره. وأنا لم أتعوّد أن أسمع رجلاً يستخدم تعابير القسمة والنصيب والحظ والقدر المكتوب. كلمات تردّدها أمّي وجدّتي وطاووس. ألفاظ مدسوسة على سعادتي، لا وظيفة لها سوى أن تجهض الآمال وتبني جدراناً أمام الجموح. لماذا أنسب لنصيبي المكتوب فضل سفري إلى هذا المكان من العالم لكي ألتقي بمهيمن وأتعلّق به؟ أنا التي جئت باختياري إلى هذه البلاد، سائرة على ساقيّ هاتين القويّتين مثل سيقان نساء الجبل.

هل تعرفين أنك من موديلات غوغان؟

قالها لي كالفن، ذات يوم، ونحن نتصفح مجلداً عن الرسام الفرنسيّ في مكتبة ديترويت العامة. نظرت إلى اللوحات الساطعة الألوان المفروشة

على صفحات الكاتالوغ، وعرفت على الفور ماذا يقصد. كانت السيقان السمراء لنساء اللوحات مصبوبة في قالب مستقيم، بلا انحناءات تبدأ بضّة وتستدقّ عند الكواحل. وشعرت بومضة من الامتنان لكالفن لأنه أهال نظرة فنيّة على عيب من عيوبي وابتدع لي سلالة كانت خافية عليّ.

وبساقين تصلحان لموديل من الجزر الاستوائية، سرت إلى مهيمن ولوّحت أمام وجهه بسعفة غوايتي، وأنا أعرف أن نهاياتها واخزة. ولم أكن أحجب عاطفتي بل أمضي وراء مسرّاتها التي ستتفتح رويداً رويداً على مسامات جلدي. لكن مهيمن لم ينظر إلى فيء سعفتي. رأى أشواكها وانتفض من التوتر والارتباك وكأننا نتواطأ في إثم أجهله.

- لا يمكن، مستحيل. أنت أختي بالرضاعة.

- وإذا قلت لك إنّني لا أؤمن بحكاية الرضاعة هذه؟

- ولو، تبقين أختي في نظري.

- Fuck you.

- شنو؟

وددت لو أُترجم له الشتيمة التي تطفر إلى لساني كلما قال لي إنني أخته. لكنّني أعضّ على شفتي تحشّماً منه. أول رجل في حياتي يشعرني بالخجل. كل الآخرين كنت ندّاً لهم. ينكّتون فأنكّت ويشتمون فأشتم ويبتذلون فأبتذل. وهو الوحيد الذي يمتلك الهيبة. هذا العصبيّ النحيل الملتحي، الذي ينضوي تحت لواء حركة طائفية متخلّفة، قلب أحوالي ومارس عليّ سطوة المعشوق. تكفي نظرة منه لكي أبتلع صوتي وقاموسي المتفلت.

والأمر لا يقبل الغلط. إنه عملي في الجيش الذي سلّحني بكل هذه البذاءة. ولم يكن أخوه حيدر مخطئاً حين صارحني، والخجل يأكل وجهه، بأن جدّتي تعتقد «حاشا السامعين» بأنني «تربية سز». والسبب، في رأيها، هو تلك البلاد التي سلبتني أخلاقي ومسختني وجعلت منّي إنسانة أخرى.

قال لي إنه خالفها في الرأي لكنّه جاملها ووعدها أن يساعدها في إعادتي إلى الصواب.

مسكين هذا الحيدر. تطالبه العجوز بأن يعيدني إلى صوابها العراقيّ لا صوابي الأميركيّ. إلى العيب والاحترام والخفر والحشمة والأصول. تظنّها قيماً خاصة بها. تحتكرها لشعبها دون باقي الشعوب. نوع من الوطنيّة البدويّة العمياء التي تحتفل بي وتطلق العيارات الناريّة حين تراني مع أخي على ابن عمّي... ومع ابن عمّي على الغريب.

أنا غريبة حتى عن جدّتي، أمّ أمّي. إنّ حيدر ومهيمن وطاووس أقرب إليها منّي لأنهم ظلوا مثلها، عراقيين خُلّصاً. ذهب ليرة. لا تشوب وطنيّتهم جنسيّة أخرى. يندفع الدم إلى شرايينهم حين يذكر اسم العراق. كوكب درّيّ فذّ في المجرّات. يغنّون لبغداد بانخطاف دراويش يدورون حول أنفسهم وأصواتهم غائرة من التهجّد. كأنّهم مأخوذون إلى نقطة قصيّة. أرواحهم شاخصة إليها. مدينة السلام، المدوّرة، الزوراء، موطن ألف ليلة، بغدااااد قلعة الأسود...

هكذا كنت أراهم، أيضاً، في أعراس ديترويت وشيكاغو وسان دييغو، مغتربين لا يريدون أن يقطعوا الحبل السريّ مع الأرض التي جاؤوا منها، مستعدّين لهزّ الرؤوس وبلل العيون مع أول نغمة. «اللي مضيّع وطن وين الوطن يلقاه؟». يتلذذون بحرقة القلوب وكأنها سرّ أسرار البهجة. «يا طيور

جيوبهم مثل مخدّر لا يطيقون منه شفاء؟

تضع أُمّي الكاسيت في مسجّل السيارة ويتشنج جبينها قبل بدء الأُغنية. «الهجر مو عادة غريبة... لا ولا منّك عجيبة». تبكي ويحجب الدمع عينيها حتى أني كنت أخاف عليها من حوادث الطريق. أقول لها إن من الخطأ بيع هذا الشريط لوحده. لا بدّ من إهداء «ماسحات عيون» مثل ماسحات الزجاج معه. تشيح بوجهها عنّي وتواصل الغناء مع الكاسيت «كلمن يسوقه حليبه... كلمن يردّه حليبه».

لم يردّني حليبي إلى بغداد.

سلختني منها الكارثة وأعادتني إليها الكارثة.

فمن له الحقّ في حسابي؟

وأبي ليس بأعقل من أمّي. يجلس في سيارته الجديدة التي سيدفع أقساطها حتى آخر العمر، وحالما يدير المفتاح يمد سبابته ليكبس على الأسطوانة. «بلادي وإن جارت عليّ عزيزة». يهزّ رأسه طرباً ولوعة ونحن في أول الصباح. لماذا، إذاً، تركت البلاد التي تحبّ وجئت بنا إلى هنا؟ وكيف تكون تلك البلاد عزيزة وقد جارت عليك، يا أبي، وكسّرت أسنانك وأرعبتك وتجسست عليك ودبّجت كلابها فيك التقارير؟

كلّهم مجنون بها. يقولون إن ليلى في العراق مريضة. يتوارثون العبارة ويرددونها مثل تميمة من التمائم. فلا هم يشفون ولا ليلى تموت. وها هو واحد من مجانينها يجلس على مسافة شبر من رغبتي، في شقّتنا بدير غبار ويخاطبني بـ«يا أختي». إنّ له كلّ صفات العراقيين الممسوسين بالنار الأبديّة، أنصاف الآلهة وأبناء ماء السماء، سَحَرة النساء بالأحزان الدفينة

الأبديّة، أنصاف الآلهة وأبناء ماء السماء، سَحَرة النساء بالأحزان الدفينة وبالأبوذيّات الطالعة من عصير الروح، حافظي سرّ الليل، حمّالي الهمايم وأصحاب مفاتيح الجنان. هل يظنّني أميركيّة بليدة لا تفقه هواجس صرعى العروبة وأدب الرسائل الخالدة؟

يقرأ لي مهيمن شطراً من بيت شعر جاهليّ ويتعجّب عندما أُكمل له العجز. يحدّثني عن مظفّر النوّاب ويكتشف أنني أحفظه خيراً منه. يفرح لأنني قادرة على مجاراته في ميوله الأدبيّة ويكظم غيظاً عندما أمضي في استذكاراتي إلى آفاق لم يصلها.

في كلّ مرّة يسألني:

- أين تعلّمت كلّ هذا؟

لو يعرف مهيمن بأي لغة كان يحدثني أبي، وعلى أي أناقة بلاغيّة تربّيت!

أحكي له، وأنا أضع يداً مسترخية على ساعده النافر الأعصاب، عن شغف المذيع صباح بهنام بالعربيّة وولعه بالشعر القديم. عن محفوظاته من قصائد الغزل التي أدار بها رأس أمّي فما عادت ترى رجلاً غيره بين البشر. وحين أصرّت على الاقتران به قال لها جدّي:

- هذا آشوري، أش جابو على العرب؟

- آشوري بلوشي برتكيشي... أُريده ولن أتزوّج غيره.

أُمّي، الجريئة بين بنات العائلة، اختارت ودفعت الثمن. أما أنا فإن ميلي إلى مهيمن لم يصعد بي، بعد، إلى الذرى التي كانت تشدّ أمّي إليها، يوم أحبّت أبي. لم يحدث معي أن تولّهت برجل يقنعني أن الرمّان لا يكون رمّاناً إلا إذا تناولته من يده. لكنّ هذا العراقيّ النحيل لا يمدّ لي راحة كفّه

بحبّات اللؤلؤ الأحمر. يعاند ولا يريد خرق معتقداته التي لا تعني لي شيئاً. كيف يكون هذا التمثال السومريّ المبهم الملامح أخاً لي لمجرد أن طاووس أخذتني إلى صدرها وأنا بنت شهرين؟ إنه يرفض حبّي لكنه لا يمانع في أن يتزوجني أخوه حيدر بعقد شكليّ لكي يهجّ إلى أميركا. يسافر كيفما اتفق وينجو من التهديدات. أنا، بالنسبة له، سترة نجاة أميركيّة لحماية سكّير تطارده ميليشيات الورع، تلك التي ينتمي لها أخوه.

يفتح مهيمن عينيه فزعاً عندما يسمعني أقول إنّني لا أؤمن بالحليب الذي يؤاخي الغرباء، ولا بعقود الزواج الأبيض ولا بالاستحرامات التي تفسد الصبوات. لا يفهم أن امرأة حرّة مثلي لا تحتاج إلى أكثر من أن يقرّب جمر عينيه منها فتتّقد الشرارة ويتهاوى التابو.

أقول له بدلال شيطانيّ لم أعهده في نفسي من قبل:

- أتمنى لو يتزوّجني رجل هنا وأبقى في بغداد قطّة أنيسة تحت قدميه.

- أنت؟ قطّة أنيسة؟

- حتى لو كان زواج متعة...

- عيب ما تقولين يا زينة، من أين لك هذا الكلام الماسخ؟

- أليس هذا ما يفعله الرجال هنا وتقبل به النساء؟

تحتقن عينا مهيمن من الغضب. تلمعان وتحمرّان وتزدادان قتامة وجاذبية. وأنا ساهمة في وجهه أتأمل منجماً من البرونز الخام. هل تبرق، هكذا، أعين التماثيل السومريّة؟ لا يمكن أن يكون هذا الغضب محايداً وفوق الشبهات. حدسي يوشوش لي بأنه يميل إليّ بأكثر مما أميل إليه. أميل وأتداعى وأهوي خفيفة في بئر لا قرار لها.

XXVI

في الطابق العلويّ من مطعم «القدس» جلسنا مثل رجل وامرأة من أُسرة محافظة، وطلبنا كباباً ولبناً. كان المكان رطباً ومزدحماً بالنازلين لقضاء حاجة في وسط البلد. ولهجة الزبائن تدلّ على أن أغلبهم من العراقيّين المقيمين أو العابرين في عمّان. والنادل أشار لنا بالصعود إلى الحيز المخصص للعائلات. وأنا سعيدة لأنني عائلته ولأن عملية جدّتي تمّت بخير، وسنذهب بعد يومين لإخراجها من المستشفى.

لم أُحاول أن أُشعل سيكارة لئلا أُزعجه. أعرف أن رجال هذه البلاد يكرهون المدخّنات. وأنا هنا بمعيّة رجل. يتقدّمني في السير ويختار الطاولة، ويجلس على الكرسيّ المواجه للناس تاركاً لي الكرسي الذي يواجه الحائط. هو الذي يتفاهم مع النادل ويطلب الطعام ويسأل عن مكان المغاسل، ثم يومئ لي بطرف عينه أنها في الممر الذي على اليمين. وأنا لا أعترض بل أتمتع بأن هناك من يتولّى عنّي كل شيء. أنا الزعيمة التي كانت تقود عصابة الأصدقاء وتحجز في المطاعم وتخطط للرحلات وتقرر مَن يجلس بجوار مَن وتراقب كل شاردة وواردة.

أكلت وكأنني خارجة من مجاعة. وكانت صحبة مهيمن تفتح شهيّتي وهو يقسم رغيف الخبز البلديّ بيديه، ويعطيني النصف متمتماً «بسم الله».

ـ الكباب لذيذ هنا.

ـ ليس أطيب من كباب كربلاء ولا طرشي النجف.

ـ دعنا من طائفياتك وكلْ وأنت ساكت.

أهمس ويبتسم طائعاً، ويشعرني الهمس بالحميميّة بيننا. كأننا عروسان في شهر العسل جئنا لنتنّفس في عمّان. كأن خيالاتي المستحيلة التحقيق هي كل ما أقدر عليه. لكن هذا يكفيني منه. قشّة الحياة هي كل ما يلزم الجنديّة المهدّدة بنذر الموت.

خرجنا إلى الشمس، وصعدنا إلى الدوّار الثالث ودخلنا إلى مقهى هادئ. يأخذني مهيمن من مقهى إلى مقهى، ومن سوق إلى مطعم. يخشى أن نعود إلى الشقّة وحيدين. وعندما أتعب يرسلني بالتاكسي إلى الشقة ويتأخر في الرجوع. يدخل من الباب إلى حجرته مباشرة بخطوات سريعة، أقرب إلى الهرولة، ويقفل وراءه الباب. وأبقى أمام التلفزيون وبهجة خفيّة ترقص في صدري. لو كان يشعر بأنه أخي بالفعل لما خاف من خلوتنا.

كنا في ردهة المستشفى، خارجين من عند جدّتي، عندما التقى بصديق يبدو أنه يعرفه معرفة وطيدة. وعلى عادة الرجال المحافظين، تجاهل وجودي تماماً ولم يقدّم صديقه لي. انتحى به جانباً وراحا يتبادلان عبارات السؤال عن الأحوال. ثم تناهت إليّ عبارات بلغة أخرى. كانا يتحدثان بالفارسيّة، ولم تكن غريبة عليّ لأن إحدى زميلات الدراسة كانت آشورية من إيران.

أخذني، ذات عصريّة، إلى مقهى على طريق المطار يقدّم النارجيلة. سمح لي بأن أطلب واحدة بالنعناع. يتأملني وأنا أنفخ سحب الدخان. يبدأ

همهمته التي تتصاعد، رويداً رويداً وتصل إليّ:

«جن حَمَد فضّة عرس

جن حَمَد نركيلة

مدكّك بمي الشذر

ومشلّه اشليله

يا ريل ثكّل يبوية

وخلّ أناغيله

يمكن أناغي بحزن

منغة ويحنّ الكطا».

كنت أعرف قصيدة مظفّر كلمة كلمة. لكنّها تبدّت أعذب بصوت مهيمن. يسحرني الكلام الجميل. أفرح لأنه يقرأ لي شعراً. كيف يكون الغزل غير هذا؟ لكنّه لا يدع فرحتي تكتمل. يعاملني، أحياناً، معاملة السائحات.

ـ أنتم الأجانب تحبّون النارجيلة لأنها فولكلور غريب.

ـ لست أجنبيّة.

ـ إسمك زينة لكنّك أميركيّة الجنسيّة.

ـ واسمك مهيمن لكنك تتكلّم الفارسيّة.

لم يبدُ عليه أنه بوغت، لكنّ عضلة تقلّصت في خدّه الأيسر وزفر زفرة خرجت متقطّعة من صدره.

ـ تعلمتها عندما كنت في إيران... أسيراً.

كم أحتاج من زمن لكي أعرفه بكل تاريخه؟

كم روزنامة يحتاج لكي يلمّ بي، بقضّي وقضيضي؟

لأول مرّة أشعر بأن الزمن شحيح معي، وأن ما فات منه ما كان يجب أن يفوت. ليس على تلك الشاكلة. ومقاهي عمّان تضيق على قصّتنا. وإيقاعها الكسلان لا يحتمل الشغف المُلحَّ الذي يجعل اللغة في سباق مع أحرفها.

أخذوه أسيراً في السنة الأخيرة للحرب. وكان يتمشى مع رفيق له في شارع السعدون عندما رفعتهما دوريّة للانضباط العسكريّ من على الرصيف، وألقت بهما في شاحنة تنقل المتطوعين إلى جبهات القتال.

- شفطونا من على الرصيف كما تشفط سيارات البلديّة القاذورات. ولم أكن متطوعاً ولا أكملت الدراسة، لكن أين العاقل الذي يستمع إليك في تلك الأيام المجنونة؟

بقي مهيمن في الأسر أربع سنوات قلبته على البطانة. ذهب شيوعيّاً بالوراثة، وعاد فقيهاً يجادل في أمور الجنّة والجحيم. أقول له في محاولة للتعاطف:

- لكنّ جوهرك لم يتغيّر...

- شيء واحد لم يتغيّر فيّ... كرهي للأميركان.

يسقط خرطوم النارجيلة من يدي.

أمضينا أوقاتنا ونحن نتمشّى لكي لا نبقى في الشقّة. ننزل مبكّرين إلى المستشفى للاطمئنان على جدّتي، ثم نذهب لنفطر في الغاردنز. يقود مهيمن السيارة إلى عبدون وننزل لنمشي على أرصفة خالية وهادئة. ندسّ

أكفّنا في جيوب معطفينا ونتفرج على بقع الثلج تطرّز هضاب المدينة.

تحدّثنا عمّا فات من عمرينا، وكلّ منّا يحاول أن يجمع حياته في كبسولة صغيرة لكي يبتلعها الثاني ونستريح من الكلام. وكنت متعجلة ولا أملك زمني. أعرف أن أيامي في عمّان معدودة والخضراء تنتظرني. سجني الذهبيّ الذي يحميني من القتلة والمتربصين. أُفكّر أن قاتلي قد يكون مهيمن أو أحد رفاقه. فكرة جامحة تضعني على شفير الهاويات الكبرى. سيتقدّم نحوي مجاهد ملثّم من أولئك الذين أرى صورهم على المواقع الأصوليّة، وحالما يحاذيني يغرز سكيناً في خاصرتي. وسأتشبث به، وأنا أتهاوى على الأرض وأكشف لثامه. ثم أبتسم مستريحة للموت الذي زارني على يده. وسيرفع هو خوذتي ويطلق صرخة خرساء حين يرى وجهي. سيدرك أنه أسال بسكّينه دم أخته. حلم أراه وأنا مفتوحة العينين فينشف ريقي وتتيبّس كفّاي. فيلم هنديّ لم أحضره بعد.

XXVII

تتقشّر الغشاوات عن حدقات الأعين مثل طبقات قشرة البصلة. تحزّ طاووس البصل بالسكين حزوزاً جانبيّة. تغمسها في ماء مغليّ فيسهل عليها سلخ طبقاتها. إنها الخطوة الأولى في فالس «الدولمة». هل تسمحين لي بهذه الرقصة يا آنسة؟

تنهمر الأخبار والصور على أعيننا، يوماً بعد يوم، ماء ساخناً يقشّر الغشاوات. لم يعد الفالس نبيلاً يدور بالروح في علياء كمنجات من خشب الأسفدان والأبنوس. كم استغرق منّا الوقت لنفهم أن الحرب ليست نزهة وطعم الموت علقم؟

رأيت صورة ريجينا بارنهيرست في صحيفة يو. إس. أي. توداي متربعة على الحشيش النديّ لمقبرة آرلنغتن وكأنها في نزهة شاعرية. «بيكنيك» في الهواء الطلق تحت شمس الربيع. كانت خصلات من شعرها البرتقالي تغطي وجهها وهي منكبّة على الكتابة أمام شاهدة بيضاء. وخمّنتُ أن المصور وضع الكاميرا في أوطأ نقطة ممكنة وكبَس على الزر. بدت الصورة وكأنها في مستوى أعشاب الحديقة، نابتة معها، وشاهدة القبر تلقي عليها بظلّها.

يأتي تومي بالصحف مرزومة بحبل من الكتّان. تبقى مكوّمة في الزاوية.

رائحتها تذكرني بمطاعم «البيغل» في الصباحات الباردة. على كلّ طاولة قنينة عسل وجريدة. أقطع الحبل بالمطواة المعلقة في حزامي وأبحث عن برامج التلفزيون. ماذا ستشاهد أمّي، هناك، هذا المساء؟

كنّا في يوم الذكرى، ميموريال داي، وعدد الجريدة يحلّق طائرة ورقيّة فوق المقابر والبيوت المفجوعة. لا أحد يريد أن ينسى أو يساعد على النسيان. يجري المصورون إلى الأمهات وينصبون الكاميرات على عتبة الدمعة. الناس تحبّ قراءة الفجيعة وهذه المرأة أضعف من أن تقاوم رغبات القرّاء.

ريجينا، أو جينا كما ينادونها، تأتي نهار كلّ أحد إلى هذا المكان. تفرش وشاحاً على الحشائش وتتربع عليه لتكتب رسائل إلى إريك هيرزبيرغ، ولدها المدفون تحت الشاهدة. واحدة من آلاف الشواهد البيض المتشابهة المصفوفة على مد النظر في القطاع رقم ٦٠ من المقبرة. تحت كلّ منها يرقد مجند قُتل في حرب العراق.

لا ترفع جينا رأسها لكي تنظر إلى النساء والرجال الذين يتجولون بصمت بين القبور. لكن ليزا فيليبون لمحتها من بعيد وشعرت برغبة في مداناة حزنها. اقتربت من جينا ووضعت يداً على كتفها. تتفاهم زائرات المقابر بوضع الأيدي على الأكتاف. إشارة لحزن واحد. مثل العميان حين ينزلون إلى الزحام. كلّ أعمى يهتدي بكتف الأعمى الذي يسبقه.

في السنة الثالثة للحرب، فقدت جينا ابنها العريف في المارينز بطلقة قناص. وفقدت ليزا ابنها لورنس في اشتباك بالقرب من الحدود السورية. وكان ذلك في عيد الأم من العام نفسه. يد تهتدي بكتف. أكتاف مهدودة بأحزان مكتومة. النحيب لا يليق بأُمهات أبطال الأمّة.

لم تجد جينا ما تقول لمحرر الجريدة الذي تطفّل على هدوء لوعتها. كانت دمعتها قطرة في بحر المقبرة. لعلّ الزائرات الأخريات أكثر منها فصاحة. لكنّه أصرّ على سماع رأيها هي. أخبرته أنها تتعاطف مع أحزان الأمهات العراقيات. ترى صورهن في نشرات الأخبار يرتدين العباءات السود ويبكين أبناء قتلوا في شوارع بغداد.

هذا موضوع آخر. ترك الصحافي ريجينا بارنهيرست وذهب ليسأل ليزا فيليبون. قالت له إن زوجها يقود السيارة لسبع ساعات لكي يحضرا إلى مقبرة آرلنغتن. تستيقظ مبكّرة في اليوم المحدد وترتدي ثيابها ولا تتزيّن كثيراً. ثم تجلس في السيارة كأنها ذاهبة إلى العمل.

هنا، على شمرة عصا من الكونغرس والبيت الأبيض، تعرّفت ليزا على عشر ثكالى وشكّلت معهنّ نادياً لأمهات الجنود القتلى في حرب العراق. ثم بدأت نساء أخريات في الانضمام إلى النادي. هل تسمحين لي بهذه الرقصة يا ماما؟

إلتقت بيث بيل مع ليزا فيليبون في هذا النادي. كان الكابتن بريان ليتندر، ابن بيث، هو الذي نقل إلى ليزا وزوجها نبأ مقتل ابنهما لورنس. دعياه إلى الجلوس في غرفة المعيشة وقدّما له القهوة. لكنّ الكابتن لم يمكث طويلاً. كان عليه أن ينقل أخباراً لعائلات أخرى. جاء من بغداد في إجازة قصيرة ولم ير طفليه بعد.

تصادقت عائلة فيليبون مع الكابتن بريان وأُسرته. ثم جاء عليه الدور. قُتل في تفجير انتحاريّ في العراق ودفن على مسافة صفّين من قبر لورنس. وكل يوم يأتي ضباط ينقلون الأخبار وصناديق جديدة ملفوفة بالعلم. تمضي الحرب في حصادها. يكبر النادي وتنضمّ إليه ثكالى جديدات.

تنمو الحشائش أكثر خضرة في آرلنغتن. مقبرة العاصمة. يأتيها أربعة ملايين سائح، كل عام. يمرّون أمام ضريح الجندي المجهول، يلتقطون الصور وهم يبتسمون للكاميرات الإلكترونيّة الصغيرة والهواتف النقّالة، ثم يتوجّهون للوقوف مطولاً أمام قبر الرئيس جون كنيدي. ينظرون إلى صورته ويفكّرون بأن جاكي وقفت هنا، وأن أقدامهم قد تقع على موضعي قدميها. كان أبي يقول: «وقع الحافر على الحافر».

يختلط زوار القطاع ٦٠ بالسيّاح فلا يعود ممكناً التمييز بينهم. يتفرجون على الكاميرات والكاسكيتات ذات الأسماء الرياضيّة، وقناني المياه المعدنية تطلّ من الحقائب الخفيفة. يرون شاشات الهواتف مشرعة في كلّ الأيدي، تلتقط صور الصفوف اللامتهية للشواهد البيض. أحجار دومينو حفرت عليها أسماء وتواريخ بدل النقاط السود. يعود السيّاح إلى الحافلات التي تنتظرهم في موقف السيارات. تبقى الأمّهات جالسات أمام الشواهد الواقفة تحرس رؤوس الغائبين.

غائبون من طوابير الحضور في حرب العراق يرقدون في خمس وستين مقبرة أخرى في أميركا. لا ينطقون لكنّهم يسببون الحرج. كم شاهدة انتصبت في مقبرة ديترويت حتى الآن؟

لا أُحبّ أن أرى أُمّي، جالسة على العشب، مثل جينا. شعرها الذي خالطه البياض يتهدّل على وجهها، تدخّن وتسعل أمام قبري. لن أقرأ الجرائد بعد اليوم. صورها تنثر الشجن. والحرب بصلة متعفنة...

XXVIII

يُلقي عليّ مهيمن بنظريّاته حول الشرخ الذي تحفره الهجرة في النفوس. يسألني عشرات الأسئلة عن حياتي في أميركا. إنه مهموم لأنّ خمسة ملايين عراقيّ تركوا الحياة التي يعرفون ومضوا إلى المجهول. يقول إن الهجرة مثل الأسر؛ كلاهما يتركك معلقاً بين زمنين، فلا البقاء يريحك ولا العودة تواتيك. أما أنا فأرى الأمر بشكل مختلف. أقول له إن الهجرة هي استقرار هذا العصر، والانتماء لا يكون بملازمة مسقط الرأس.

يعجب مهيمن للقادرين، مثلي، على الاستقرار في الهجرة. يسمّينا «الذين يغيّرون جلودهم». لا تعجبني أحكامه القاطعة. أحتجّ:

- ليس لي غير جلد واحد، لكنّه بعدّة ألوان.

- إسمك زينة وليس حرباء. أما أنا فلا أعرف سوى الوطن الأُمّ. لا يمكنني أن أتصوّر الوطن الخالة أو الوطن العمّة. أشدّ ما يثير سخريتي تعبير «وطني الثاني».

- يمكن للعالم كلّه أن يكون وطنك. ألم تسمع بمصطلح «المواطن العالمي»؟

ينظر نحوي بإشفاق مسالم، كأنه يتابع بعينيه قشّة في مهبّ الريح تبحث عن شجرة تتعلّق بها. يتأمّلني ويتمتم كلاماً لا أفهمه. تمتماته تبدأ خفيضة

ثم تعلو. نصوص من شعر كتبه في رأسه عندما كان في السجن. حفظه لأن الورق كان ممنوعاً. قصائد رقيقة في مقاطع منها أوغامضة. تشبه الأدعية والأحاجي. طلاسم للتمويه على حرّاس السجن. هل يخشى السجين من أن يقرأ سجّانه الأفكار؟

لم أجد ما أتشاطر به على مهيمن سوى المحفوظات التي بقيت في بالي من منهاج الدراسة. نلجأ للشعر لأن الغزل المباشر حرام. أستعيد أبياتاً كان بابا يلقيها ونحن جالسون للإفطار في حديقة البيت. أبي يحبّ الجواهري، عندما يكون سكران. ويميل في صحوه إلى شعراء المهجر. يجدهم أنيقي العبارة، يصلحون للعمل مذيعين ومقدّمي برامج أدبيّة. يتلو المذيع اللامع الذي هو أبي القصائد ونحن نغمس خبزنا في شاي الصباح. يقرأ وقع صوته في أعيننا. يدرّب حنجرته على مائدتنا. ونحن نأكل ونسمع، أو نسمع ونشبع، ويضطرب تنفّس أمّي حين يصل في إلقائه إلى «دجلة الخير».

هل ذهبت كل تلك الدروس الصباحيّة عبثاً؟ ألهذا علّمني أبي اللغة ودرّبني على الاهتمام بمخارج الحروف لكي أنتهي مترجمة معتمدة لدى الجيش الأميركي؟ أقمع أفكاري مثلما كان مهيمن يموّهها عن سجّانيه. أخشى أن يسمع ما في رأسي. إنه يبدو سعيداً بي. ينتفض من المفاجأة وأنا ألقي الشعر العموديّ ملوّحة بسبّابتي دلالة الخطورة، كما علمتنا الستّ غلاديس يوسف في درس المحفوظات. يسألني بدهشة لا تقاوم:

- هل كانت الست غلاديس من أهل النجف؟

نضحك مثل عاشقين لاهيين. إنه يعرف كيف يمزح ويقهقه. ماذا ينقصه؟ يحتاج تدريباً بسيطاً ليصبح على مزاجي بالكامل. لكنّه يلمّ الشبكة بسرعة. لا يسمح بالتمادي. جاء مفرّق اللذات.

إنتبهت إلى أنني أمارس الرقابة على تداعيات أفكاري وأنا أحكي لمهيمن عنّي وعن حياتي. أصف له وسامة أبي وسعال أمّي وسكائر أخي. رتابة بيتنا في ديترويت بعد أن تركنا بابا وراح إلى أريزونا. أبتكر خزعبلات طريفة عن الأعمال الكثيرة التي جرّبتها. عاملة لدى «فورد». موظفة في وكالة سياحة. مترجمة في دائرة لاستقبال المهاجرين. «بيبي سيتر». مذيعة في راديو كلداني في ديترويت.

- مذيعة بالكلداني؟

- وبالآشوري أيضاً.

أحكي كلّ شيء وأتكتّم على عملي الحالي. حكايات مثل شباك الصيادين. أطوّح بها في اتجاهه وأسحبه ناحيتي. أشعر به خفيفاً وثقيلاً، مستسلماً وممانعاً، لابطاً يحاول المقاومة وتخذله زعانفه. لكن الوجه البرونزيّ تجهّم حين وصلت إلى حكايتي مع كالفن، صديقي الأميركيّ الذي لا تطيقه أمّي.

- يبدو أن والدتك على حق.

- كيف تقول هذا وأنت لا تعرف كالفن؟

- هل تحبّينه؟

- لا أدري. نحن صديقان من أربع سنين.

- يعني إلى أي حدّ؟

طعم الغيرة لذيذ!

هذه أولى بشائر الانقلاب العاطفي لدى أخي في الرضاعة. ما عليّ سوى أن أحرّك الجمر لكي يزداد الوهج. هل كان عليّ أن ألبس الخاكي

وأن أدخل جيشاً وأخوض حرباً كي ألتقي به؟ كم فرّطت في العمر الذي مضى من قبل! الهجرة. ديترويت. الغرين كارد. البيوت الخشبية المتعفنة في حي «سفن مايل». أكواب القهوة الكرتونيّة الكبيرة الفاترة. السيارات الفخمة بالتقسيط. بدلات العرس المستأجرة. العرائس البواكر المشحونات من قرى الشمال إلى القارّة البعيدة. مخازن البقالة المحميّة بالرشّاشات من عصابات السطو. «الستورات» التي يحلم بامتلاكها المهاجرون. الفقراء الجدد الذين يصبحون أثرياء بعد أن تأكل الأشغال الشاقّة عافيتهم. يعودون آخر الليل ممصوصين وعاجزين عن إبصار زوجاتهم وأطفالهم.

حين عثرت عليه جاءت شفطة حليب ووقفت بيننا. لكنّه جاهز للغشّ. يريد أن يصدّني عنه لكي يزوّجني من أخيه، بعقد شكليّ. أحمل حيدر معي، مثل حقيبة يدي، إلى أميركا. ماذا سأفعل به هناك؟ ماذا سيفعل بي؟ سيشكرني حال حصوله على الغرين كارد مع قبلة على رأس الأخت العزيزة... ثم تبتلعه القارّة الشاسعة.

- مهيمن، لماذا لا تأتي أنت معي إلى أميركا؟

- وماذا سأفعل هناك يا أختي العزيزة؟ هل أشتري تاكسياً وأعمل على خط ديلبورن - ديترويت؟

تذبحني السخرية السوداء التي تلازم العراقيين. كأنهم عاشوا ما فيه الكفاية حتى ما عادوا يرون حياة وراء الخراب. كأن مهيمن يشمّ، من هنا، الجيفة التي تنتظره في تلك البلاد. يستنكر دعوتي ولا يريد أن يفهم أنّه لن يكون وحيداً وأنا معه. لن يتعب كما يتعب غيره من المهاجرين.

إسمعني جيداً يا سيدي، يا حبيبي، يا أخي العزيز، أنا أضمن لك أنك

لن تقف في طوابير المعوزين لكي تنال كوبونات الطعام التي تلقى للعجزة والعاطلين والسود والحبالى.

- ما عيب الكوبونات يا ستّ زينة؟ لقد عاش عليها عشرون مليون عراقيّ عشرين سنة. نحن نسمّيها الحصّة التموينية.

أفرح لأنه ناداني بالستّ زينة. لكنّ الحوار لا يستقيم بيننا. تتلبّسه حالة من المماحكة ويبدأ بتسفيه كل ما أقول. وعندما ينتبه إلى ضيقي يعود ليسترضيني بعذب الكلام، بادئاً بصفة «أختي العزيزة» فتفور دمائي. يتحوّل، بكلمتين، إلى محرم يرافقني في السفر. صيغة شرعيّة تضع حجاباً بيني وبينه لتحديد الأرض التي يتحرّك عليها كلّ منّا. عبارة تحذير. مثل «التدخين مضرّ بالصحّة ويسبب السرطان».

«أُختي العزيزة» ملساء وحمّالة أوجه. مجاز يقود إلى جهنّم أو تعويذة تعصم من المعصية. يناديني بها من أجله لا من أجلي. ينطقها فيزداد صلابة أمام غوايتي ويمدّ لي، في آن، جسراً من دمه إلى دمي. أسمعها فيرتفع منسوب شجني وأكاد أفقد ثقتي بنفسي. أكره الموقف السخيف الذي يضعني فيه. ألعن الساعة التي عدت فيها إلى هذا البلد.

XXVIV

يصل الموت إلى حافات أسرّتنا وينزع تحت المخدات والأقدام.

موت يوفّرني، مستخفّاً بي، لكنّه يتمهّل لكي ينتقي الرفاق الأوسم والأكثر فتوّة.

ما أفخم ذائقة الموت!

أمرّ بالعيادة الطبيّة وأنا خارجة إلى عملي فأرى الحرّاس يسحبون من شاحنة نقّالة جثة مغطاة بشرشف أو بسترة عسكريّة. هناك، دائماً، جنود يقفون جانباً وهم يدخنون بوجوم ويفركون أعينهم. لا أعرف من يكون القتيل، هذه المرّة. أخاف السؤال. غيمة رمادية تغشى بصري. بكاء يسيل إلى الداخل.

بدأ الموت يقترب ويلصق الشرائط السود على أسماء أعرفها. رفاق أتقاسم وجباتي معهم على مائدة واحدة. مات تشارلي بعبوة ناسفة زرعت في طريق سيارته. كان مدنيّاً ومجنداً سابقاً في المارينز، تعاقد مع الجيش وأصبح مسؤولاً عن نقل المترجمين المحليين من معسكر لآخر. لم أعرف بموته إلا بعد أيام. ظننته غائباً في مهمّة. بعد مقتله دخلت شقيقته على بريده الإلكتروني وبعثت بإشعار إلى كل من كان يتراسل معهم. كتبت لنا أن جسده تمزّق على مبعدة أميال إلى الجنوب من الموصل.

لم يكن الوضع في الموصل أفضل منه في الأماكن الأُخرى. يستيقظ الأهالي في الصباح فيجدون رؤوساً مقطوعة مرميّة في الساحات العامّة. رعب تحفظ ذاكرة المدينة ما يشبهه. والفارق نصف قرن. يتذّكر كبار السن ما كان في أواخر الخمسينيات، ويضربون كفاً بكفّ. مدن تقطع رؤوسها بأيدي أبنائها.

رأيت، عند وصولي إلى الموصل، فلتاناً عجيباً. مراكز الشرطة مقفلة ومضروبة، وعشرات الملثمين يسرحون في الشوارع. أهذه هي المدينة التي يرف قلبي عند ذكر اسمها... مدينة أجدادي؟

جيء بلواء الذيب للسيطرة على الوضع. كان هذا اللواء من تشكيلات الجيش العراقي الجديد. الفرَق التي شكّلناها للعمل مع دوريّاتنا. تلاحق العصاة من شارع لشارع على أمل إعادة النظام إلى المدينة. نسمّيهم العصاة أو المتمردين، الإرهابيين، المجرمين، عناصر الشغب. كلّ الصفات صالحة لكي لا نقول المقاومة.

إحتفلت في الموصل بثاني كريسماس لي في العراق. دخل انتحاريّ، قبل العيد بأربعة أيام، إلى صالة الطعام في معسكر الغزلاني وهو يلفّ جسمه بحزام ناسف. فجّر نفسه وسط الجنود الذين يتناولون الطعام. مات اثنان وعشرون شخصاً بينهم أربعة عشر عسكرياً من قوّاتنا وأربعة جنود عراقيين، وأُصيب واحد وخمسون أميركياً بجروح. كان الانتحاريّ مدسوساً على عناصر الأمن. أي وثقنا به وحسبناه علينا. قام بتسريب المتفجرات إلى قاعدتنا على مراحل.

في المساء نفسه أعلنت إحدى الجماعات الدينيّة المحليّة مسؤوليتها عن التفجير، وهلّلت له باعتباره من أعمال المقاومة. مجرد اختلاف في

وجهات النظر، بحسب المحللين السياسيين وأدمغة مراكز الأبحاث. يحدث في العراق ما كان يحدث في فرنسا وفييتنام. مع مبالغة مفهومة بحكم المزاج المتطرف. ألم يقولوا لنا إن حرباً لا تشبه أخرى؟

لم أسمع صوت الانفجار وأنا في غرفتي في الغزلاني، المعسكر الذي أُقيم في موقع مطار الموصل. سمعت قنابل الهاون التي تلت العمليّة، تنطلق من الخارج في اتجاه غرفنا. غرف النوم عربات حديدية مساحة كل منها ثمانية أقدام في عشرين اسمها «هوكس». ننام في أقفاص مثل القردة.

سقطت إحدى القنابل على الغرفة المقابلة لي. تراجعت من شدة الصدمة وسقطت على ظهري. كان السرجنت نزيل الغرفة ذاهباً لتفريش أسنانه. نجا من الموت في القفص.

نصبوا كنيسة في الغزلاني لإقامة القداديس أيام الآحاد. وجدت الكنيسة مكتظة بالجنود نهار الأحد الذي أعقب التفجير. وكان الكاهن يرتدي حلّة بيضاء مطرّزة، وسرواله الخاكي يظهر من تحتها. جاء شيطاني وجلس بجواري. نظر إلى سروال الكاهن وسألني:

ـ أين وضع خوذته؟

ـ تحت المذبح.

ـ غير صحيح. ألا ترينها معلّقة على الصليب النحاسيّ الأصفر؟

وقف مجنّد أسود يعزف على الغيتار ومعه فريق ينشد «الغوسبل». أزحت شيطاني عنّي وأغمضت عينيّ وتركت نفسي للأصوات الضاجّة بالبشارة، تمسح وحشتي وتهدهد شجني. أمضيت الليلة السابقة في كتابة

مقال أرسلته إلى أصدقائي بالإيميل. حكيت لهم عن تاريخ الموصل وجغرافيتها ومنارتها الحدباء. ذكرت شيئاً عما أقوم به. عموميّات. أكتب عبارة وأمسح لئلا أقع في المحظورات الأمنيّة.

كتبت أن عملي مثير لكنه يتحوّل إلى مصدر للكآبة. لم أكتب أنني أكتئب عندما أتولى ترجمة جُمل مبهمة. لغة يجيدها الموقوفون الذين قاموا بما يمكن اعتباره تمرداً. معظمهم من الشباب الفقير واليائس. يرفضون التعاون. يجيبون على الأسئلة جواباً واحداً: «والله ما أعرف». حفظ الجنود الأميركان الكلمات من كثرة ما مرّت عليهم. صاروا يستخدمونها فيما بينهم. يفتح تومي أو مايكل أو ديبورا كفّيه ويقلب شفته السفلى ويهزّ رأسه ويقول بعربيّة مضحكة: «واللّه ما أعرف شي... ما أعرف كل شي».

خرج الضابط، ذات يوم، وتركني وحيدة مع أحد المعتقلين المتقدمين في السّن. سألني الموقوف وهو يتصنّع ابتسامة جنتلمان:

- الأخت من وين؟

- أميركية.

- لكن لهجتك من بغداد.

- صحيح، أنا مولودة في بغداد.

- ولماذا تعملين مع محتلّي بغداد؟

حسمت المحادثة:

- ليس من حقك أن تتكلّم طالما أن الضابط غير موجود.

قبل إرسالي للعراق، سألتني ضابطة المخابرات التي أجرت لي اختباراً أمنياً:

- لو خطفك الإرهابيّون وهدّدوك بالتعذيب... ماذا تكشفين لهم من أسرار؟

- سأدسّ حذائي في مؤخراتهم.

نطقت بها وأنا في كامل الجد. لم تستغرب الضابطة بذاءتي وسرّت بالجواب.

مرّت سنواتي ولم أُواجه موقفاً مثل الذي سألتني عنه. المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بالدم يرتجف في عروقي كانت حين مررت بزنزانة يشغلها أحد الموقوفين الخطرين. كنت في طريقي إلى المغاسل. رآني من النافذة الصغيرة المشبّكة بالحديد. رفع يده ومرّر إبهامه على رقبته يهدّد بذبحي. لم أردّ عليه. واصلت طريقي وتبولت واغتسلت ثم استدعيت جنديين من عتاولتنا وطلبت منهما تأديبه. لم يرفّ لي جفن.

تزداد شراسة ضباطنا كلّما ازدادت خسائرنا. صارت النقّالات الداخلة والخارجة من العيادة الطبية منظراً يومياً. أراه ولا أتآلف معه. وبهذه الروح الساخطة على الموت الكامن في المنعطف طلعت لنا قضيّة «أبو غريب».

شاهدت الصور في التلفزيون،وأنا مشغولة بالترجمة في سجن المطار. كانت الشاشة تبث برامج فوكس نيوز وتعرض الفيلم بدون صوت. تركت ما كنت أقوم به واقتربت من التلفزيون ورفعت الصوت لأفهم ما أرى. الموقف يشبه ما حدث معي يوم رأيت تفجير البرجين في نيويورك.

لحظات من الذهول. أدرت وجهي ورأيت جمعاً من الجنود والضباط يقفون متسمّرين ويتفرجون على ما أتفرج. انتهى الخبر. أدرنا أعيننا، فيما بيننا، وكأنّ كلاً منّا يريد أن يثبت، بشهادة رفاقه، أنه موجود في مكان بعيد

بيننا، وكأنّ كلاً منّا يريد أن يثبت، بشهادة رفاقه، أنه موجود في مكان بعيد عن ذلك السجن ولا دخل له بما يجري فيه.

بحثت عن المصطلح في رأسي. ثلم الشرف العسكريّ. شرف كنت أقرأ عنه في الروايات وأتأثر حين أراه في الأفلام. أتأثر إلى درجة التدميع أمام مشهد قائد عسكريّ منتصر يؤدي التحية لخصمه القائد العسكريّ المندحر. يحتقن أنفي عندما أرى على الشاشة جندياً يسقط مفتدياً علم بلاده. يجاهد لكي لا يلامس قماشه الأرض.

لكن أبو غريب كان بعيداً عن «جسر نهر كواي». والشرف العسكريّ لم يعد قضية رجال فحسب بل نساء أيضاً. أمر أصابني بغضب ينزّ صديداً. من أتى بهذه القحبة التي تسحب السجين مثل كلب وراءها... من أتى بها إلى جيشنا؟

السجون أماكن لا تصلح للسينما، رغم كل ما صوّروه فيها من أفلام. ليس الألم هو البطل بل الإذلال. تذكرت تعذيب أبي في دائرة أمن السعدون. تخيّلت أن المجنّدة ليندسي إنغلاند تربط أبي من رقبته بحزام من أحزمة الكلاب وتجرّه وهو عارٍ. تصاعد الصديد إلى حلقي وأنفي. كيف سأنظر في وجه بابا؟

سمعت الجنود يعلّقون على المناظر التي تعيد القناة عرضها مرّة بعد مرّة. لم يسعفني ذهني في فهم كل ما يقولون. بينهم الساخط وبينهم من يحاول التبرير. يقول إنّ من قاموا بهذه الأعمال هم من الجنود الجهلة وأصحاب الرتب الواطئة. سمعت جندياً يصف أولئك الأولاد بالغباء. كيف سمحوا بالتقاط الصور؟ أجابه صوت أجشّ أن هؤلاء المساجين هم من عتاة القتلة، وإلا لما عوملوا بهذا الشكل.

أسمع وأعجز عن الدخول في الجدل. ثم انطلقت عبارة شيخو، أحد مترجمينا المحليين، كالسهم المسموم إلى أُذني:

- يا معودين، هذا التعذيب زلاطة قياساً بما كان يجري في سجون البعثيين.

- شيخو... سد حلقك أحسن لك.

- شدعوة متضايقة ستّ زينة؟

- لأن شغلنا مو تبديل تعذيب بتعذيب.

قلتها له بصوت خافت، بالعربي بيني وبينه. ثم وقفت وكررت العبارة بالإنكليزية بصوت تعمدت أن يسمعه الآخرون. التفتوا نحوي ونظروا إليّ باستغراب، كأنني الناطقة باسم العدو. في أحسن الأحوال باسم «آمنستي إنترناشنال». ضايقتني النظرات. انصرفت غاضبة إلى القفص الحديدي الذي يسمّونه غرفة النوم وبقيت هناك حتى اليوم التالي، سجينة سخطي.

XXX

مرّ عيد الميلاد من العام ألفين وخمسة وأنا بعيدة عن جدّتي. الأعياد الكبيرة هي الفواصل التي أضع في خاناتها سنواتي. حالتي النفسيّة منحطّة رغم أن سجننا الأخضر مُزيّن بقلائد الورق اللماع والنجوم الفوسفوريّة. أسجّل، كل مساء، يوميّات عجلى على الكومبيوتر، ثم أكتب إيميلات طويلة إلى كالفن وأمّي في ديترويت. أبعث، أحياناً، قبلات إلى بابا في أريزونا. يردّ عليها بأنّ القبلات الإلكترونيّة غير مشبعة. كان أبي قلقاً عليّ بسبب مطحنة جنودنا في العراق. كتب لي:

ـ عودي على رجليك أحسن من أن تعودي في صندوق. لن أحتمل الأمر.

كتبت إلى جايزن أسأله عن أحواله في الجامعة. بدأ يدرس هندسة المكائن. أجاب:

ـ كنت أُفكر بأن أستولي على غرفتك وأضع فيها طاولة بينغ بونغ. لكنّني الآن أريدك أن تعودي. هل تتصورين أنني سأكون سعيداً إذا تخرّجت مهندساً، بفلوسك، وتكونين أنت نائمة تحت صليب من الرخام، أو ترقصين بساق خشبيّة في حفل عرسك؟

حتى جايزن، أخي الصغير الحشّاش يخاف موتي. يبدو أن ابتعادي عنه

جعله ينسى طبعه العنيف ويصبح عاطفياً مثل أمّي. أقرأ رسائلها وأغرق في نوبات الأسى. كأنها تتآمر مع جدّتي ومهيمن ضدّي. تكتب لي مطولات تشبه دروساً في التاريخ والتربية الوطنيّة. أيّ وطن منهما؟

رسائل الأستاذة بتول بريديّة لأنها ما زالت تعتبر الإيميلات مخاطبات صبيانيّة. تكتبها على ورق الفندق الذي تعمل فيه. كانت في أول هجرتنا تأخذ السراويل من «وول مارت» وتقصّر أذيالها حسب قامات الزبائن. يدفعون لها دولارين عن كل بنطلون. قبلت هذا العمل مضطرة بعد أن أُصيب أبي بأزمة قلبية. كنّا في شهرنا الخامس للهجرة ولم يحتمل المذيع السابق أن يعمل حمّالاً لصناديق البيرة في مخزن لأقرباء. زعاطيط لم يكملوا الدراسة لكنّهم مليونيريّة.

في الفندق، عملت ماما مساعدة طبّاخ لثلاث سنوات. ثم نقلوها إلى الاستقبال. كانت تندب حظها في كل يوم من أيام الله، إلى أن رأت رئيس قسم الفلسفة السابق في جامعة بغداد يعمل مسؤولاً عن أرفف الخضار في مخزن «فارمر جاك». شرح لها الدكتور يعقوب، بفخر شديد، كيف ينقذ رؤوس الخس من التلف السريع. يشذّب وريقاتها الخارجية الذابلة ويغمّس خناجرها بالماء البارد. وبفضل تلك الهمّة استحقّ تقدير المراقب ونصف دولار زيادة في الساعة. منذ ذلك اللقاء توقفت الست بتول عن النقّ. صارت قنوعاً بعملها. لكنهم صرفوها لأن الفندق تحوّل إلى «منطقة نظيفة من التدخين» وكانت سيكارتها إصبعاً سادسة في يمناها.

كتبت لي على ورق الفندق القديم تطلب منّي أن أذهب لزيارة مدرسة الراهبات. البناية المشيّدة بالطابوق الأصفر في الباب الشرقيّ على قطعة أرض وهبها ملك العراق، في العشرينيّات، لإرساليّة فرنسيّة. هكذا

وصفتها لي. هل أحتاج لخريطة لكي أستدلّ على المدرسة التي درسنا، أنا وماما فيها؟

تحدّثني أمّي عن الراهبات اللواتي درست على أيديهنّ فتيات خدمن البلد. أكاد ألمح بصمات جدّتي رحمة بين السطور. هل جنّدتها، هي أيضاً، في حملة إعادة تربيتي؟ كم صار عدد المجنّدين في المهمّة؟

مع الرسالة، كانت هناك بطاقة معايدة عليها رسم لحقل مغطى بالثلج. الثلج حبيبات لامعة مذرورة على صفحة البطاقة. سُكّر يغري باللحس. شيء لا يشبه ذلك الركام الأبيض الذي يتجمّع أمام أبواب البيوت في ديترويت. نأتي بالمسحاة ونكنسه كل صباح. ثم نشغّل السيّارة.

لم تبدّد معايدات أمّي وأبي وحشتي أيام الكريسماس، ولا إيميلات كالفن وبقيّة العصابة. خرجت في سيارات مصفّحة ورأيت باعة على أرصفة العلويّة وشارع فلسطين يعرضون أشجارالميلاد. كانت سيارات مفتوحة الصناديق، نصف فتحات، تنقل أغصان العفص إلى بيوت لا أعرف ساكنيها.

يهدّئ أصحاب السيارات من سرعتهم حالما يلمحون، في المرآة، سياراتنا قادمة في الطريق. يفسحون في المجال ويخرجون عن التبليط أو يصعدون على الأرصفة. ينتظرون مرورنا والقلق في أعينهم. لا يعلّقون بكلمة. قلوبهم مغلقة على ما فيها. هل تفرح في العيد أعين تنام على فزع وعليه تستيقظ؟

أقول لنفسي إنّهم لا يخافون منّي بل من ثيابي. لم يكن عبثاً أن شعرت بما يرادف الرجولة يوم ارتديت البزّة العسكريّة. تمنحني أبعاداً تختفي حين أنزعها عنّي. كأنها تطيل من قامتي وترفع كتفيّ وتوسّع من مساحة صدري.

ألبس الخوذة ذات الشبكة المرقّطة وأضع عوينات الشمس العاكسة وأتحوّل من امرأة سمراء صغيرة القامة إلى كائن فضائيّ. تمشي الكائنات الفضائيّة جماعات جماعات. تتنقّل في الهمرات وتحمل البنادق الحديثة. يتفرّق العراقيون السائرون في الطرقات وسائقو سيارات الإسعاف وخيول عربات بيع الكاز وينكمش الذين يسقون حدائق البيوت.

يظهر رتل لسياراتنا من بعيد ويتجمد المشهد في الشارع. يد ما تتناول الريموت كونترول وتكبس على زر وقف الصورة. يفرمل الفتيان درّاجاتهم ويثبّتون قدماً على الأرض. يلتزم سائقو السيارات الهامش الترابيّ. يقف السائرون دقيقة صمت. الكل في لحظة حداد، فمن الميّت؟

في البداية، كنت أبتسم لكل المارّة. وكان هناك من الأطفال والصبية من يبادلني الابتسام. لكن نظرات الكبار تقول كلاماً آخر. ثم تغيّرت التعابير على السحنات. رائحة كريهة هبّت من مزبلة. هل نحن مقرفون إلى هذا الحد؟ المزابل في كل الزوايا والقرف استحال، بالتدريج، حقداً. كأن هناك من وزّع أقنعة مسرحيّة شرّيرة على كل أهالي المدينة.

أسمع رفاقي في السيارة يقولون من وراء حزام الخوذة الذي يغطي أفواههم:

- إنهم يكرهوننا.

لا أريد تصديق ما أسمع. أحاول الاعتقاد بأنني لست معنيّة به. أنا عراقيّة الأصل والمولد ولا يمكن أن يكرهني أهل البلد الذين يشبهونني في سمرتي، وأشبههم في الملامح واللغة والدم الفوّار.

- إنهم يكرهونك أكثر منّا... كيف لا تفهمين؟

ديبورا صريحة معي بنصف الحقيقة. الحقيقة الكاملة هي أن العراقيين يعتبرون رفاقي محتلّين، جنوداً يؤدون خدمتهم العسكريّة وينفّذون الأوامر. لا يد لهم في قرار الحرب. مثل الجنود العراقيين في حرب إيران وغزو الكويت. أما أنا فيرونني عميلة.

تفتّحت عيناي على لوحة كالحة تؤذي البصر. هل تراني جدّتي هكذا؟ وطاووس وابنها حيدر؟ هل سيكرهني مهيمن ويتمنى موتي؟ حلمت به، في إحدى الليالي، يخطفني إلى مكان مجهول. لم يكن الفارس الذي يخطف محبوبته إلى البراري على حصان أبيض. حملني على حين غفلة وألقاني، مقيدة اليدين ومكممة الفم،.في صندوق «تويوتا» بيضاء. سلّمني إلى جماعته في جيش المهدي. ولم أره لأن عينيّ كانتا معصوبتين لكنني شممت رائحته بينهم. حتى الروائح تحضر في أحلامي. استيقظت وكان عطشي هائلاً وشجني يخنقني.

لذلك، لم أكن حزينة عندما انتهى عقدي مع الجيش. حان موعد عودتي إلى ديترويت بعد العيد مباشرة. إنها استراحة فحسب. لم أكن متيقّنة من أن حياتي هناك ستستقيم كما كانت. انشطرتُ نصفين، ما قبل بغداد وما بعد بغداد. كنت مرتبكة عاطفياً. أشعر أن حكايتي لن تنتهي عند ذلك الفصل.

لم أكن حزينة،لكنّ عيدي لم يكن بهيجاً. حاولنا ابتكار حفلات صاخبة وتبادل هدايا غير معتادة، ولم يعتدل مزاجي. أهديت إلى الرائد دونوفان أسطوانة قديمة لإلفيس بريسلي من مخلفات خالي منير. عثرت عليها في بيت جدّتي. أهداني هو طبقاً ملوناً مضفوراً من سعف النخيل تتوسطه عين زرقاء. ديبورا جلبت لي وشاحاً مصنوعاً من القطن الأسود الناعم. تلمّستُه

فوجدته من قماش الفوطة البارد الذي تغطي به العراقيات رؤوسهن. طرّزته بيدها بأزهار حمر وصفر.

وصلني إيميل، صباح العيد، من مالك الحزين في الموصل. أخبرني أن كوندي تزور معسكر الغزلاني، وقد تشاطرهم وجبة ديك الحبش التقليديّة. في المساء عاد وكتب لي أن وزيرة الخارجيّة تناولت الغداء مع زعماء المنطقة الكرديّة ومرّت على الجنود مرور الكرام. ثم وصل رامسفيلد في «سوربرايز» آخر. بابا نويل يتبع ماما نويل. عرفنا بوجوده من التلفزيون. قيل لنا إنه اجتمع بالضباط في الطابق العلوي. ولم يكن يُسمح للمترجمين بالصعود إلى هناك. ترك زميل لبنانيّ موقعه وصعد لكي يرى وزير الدفاع. تمكّن من التقاط صورة معه. في الأيام التالية راح يتباهى بالصورة أمامي:

ـ لو أنك صعدت معي لكنت أخذت صورة مثلها...

ـ لست في حاجة لها... Put it in your ass

XXXI

«كلب أبو بيتين». هكذا وصفت طاووس حالتي بعد عودتي من ديترويت. لا أنا قادرة على استرجاع حياتي السابقة ولا على التآلف مع حياتي في الخضراء.

أنا كلب له بيتان لا يأمن لأي منهما. وطاووس قد تكون مجنونة وجامحة وصاحبة ألف بال، لكنها تنطق بالحكمة، خصوصاً عندما تشخّص حالة من حالاتي. تنظر إلى حليبها في شراييني وتعرف مكمن دائي. تقول جدّتي إنني جئت إلى الدنيا على يدي طاووس. هي التي تلقّفتني من رحم بتول. ربطت حبل سرّتي وغسلتني من الدم. لكنّ أُمّي كانت متكبّرة، تقول إن طاووس طيبة وبنت حلال لكنّها جاهلة، تبصم ولا تفكّ الحرف. خافت عليّ منها.

راحت طاووس وتسجّلت في صفوف محو الأميّة للكبار. من يتغيّب يوماً يدفع خمسة دنانير جزاء. بدأت تشتري الجرائد، حسب نصيحة المعلمة. لا تسير إلا وهي تحمل جريدة الجمهورية تحت إبطها. تجلس في الطارمة وتقرأ «راشد يزرع... زينب تحصد». تعلمت طوال أشهر ثم ملّت وطارت الأحرف من رأسها. لكنها ظلت تشتري الجريدة. تقول إنها مفيدة لمن لا يقرأ. تحمي الرأس من الشمس. توضع على حافة الرصيف

للجلوس في انتظار الباص. تُفرش على المائدة ساعة الأكل. من يعترض على حكمة طاووس؟

عدت إلى بغداد بعد بضعة أشهر من الضياع النفسي في ديترويت. جاءتني طاووس إلى المنطقة الخضراء ولم تعجبها أحوالي. «كلب أبو بيتين». اتصلت بها وسألتُ عن مهيمن. هاتفه مغلق. أبعث له إيميلات ولا يردّ. لعلّها لم تفهم عبارتي الأخيرة. أخبرتني أنه ليس هنا، ذهب إلى النجف وهي قلقة عليه. الوضع خطير وجماعته مطلوبة.

- ليش راح؟

- راح مع رفاقه. الدنيا قايمة هناك والله الستّار.

كنت أحمل لها هدايا من أمّي. طلبت منها أن تأتي إليّ، وخرجت لملاقاتها عند البوابة وأنا مرهقة من فارق التوقيت. فيها رائحة مهيمن. كيف سأراه؟ وهل أجرؤ أن أدعوه إلى الخضراء؟

لم تكن سفرتي إلى ديترويت إجازة ولا مدّ رجلين. كانت سعياً متعباً لتوقيع عقد ثان مع شركة توريد المترجمين. انتظرت، على نار، تسفيري ثانية إلى العراق. كان عليّ أن أمرّ بالاختبار الأمني وأن أملأ، من جديد، أوراقاً كثيرة. ذهبت إلى فرجينيا وأجريت اللازم وتعرفت إلى وجبة أخرى من المترجمين. هم مبتدئون وأنا مرجعيّة.

العيش خارج القلق ما عاد يناسبني، ولا علاقتي بكالفن تناسبني، ولا الوقوف في النافذة وتأمل الثلج النادف في الخارج. التأمل ليس من لوازم الجنود.

كانت الطائرة التي أخذتني إلى البيت «هوم سويت هوم» قد تأخرت في

فرانكفورت. قيل لنا إنّ عاصفة ثلجيّة تشلّ مطار ديترويت. سرت رجفة في أطرافي وتملّكني اشتياق مُلحّ إلى شمس بغداد. انتظرنا عدة ساعات ثم أقلعنا. نمت في مقعدي نومة أهل الكهف. إنه تعب الشهور الماضية يتظاهر، مرّة واحدة، معلناً عن نفسه.

الطائرة مدنيّة ومريحة. ليست مثل الحوت البشع الذي نقلونا في جوفه إلى العراق. لم أستفق إلا على يد المضيفة تنقر على يدي. وصلنا وبحثت عن كالفن وراء الحاجز فلم أجده. أخذت هاتف أحد رفاق الرحلة واتصلت به. أخبرته أنني هنا، في ديترويت. ردّ عليّ وكأنني كنت في السوبرماركت القريب. ماذا دهاه؟ أنا عائدة من جهنّم وهو يعرف وقت وصولي. لماذا يتثاءب في التلفون ولا يجد ما يقوله لي سوى «هاي»؟

- كنت أتوقع أن تأتي إلى المطار...

- سيارتي بلا وقود والجليد يعطّل الطريق.

شعرت بالبرد والوحدة. بالوحشة التي تنهش الجنود العائدين وهم يسيرون على عكازات، أو يسحبون وراءهم ساقاً معطوبة. ولم أكن معطوبة في جسدي لكن مواضع في ذاكرتي كانت تؤلمني. وحقيبتي القماشيّة الخضراء ثقيلة. والناس من حولي يتعانقون ويسرعون إلى مستقبليهم. وزينة الميلاد ما زالت تتدلى من سقف المطار.

ثم سمعت صوتاً أعرفه ينادي اسمي. لم أتوقع أن أجد جايزن في انتظاري ولا أن أرى أبي في ديترويت. يتجهان نحوي ويشبعانني عناقاً وقبلات. لم أُعر بالاً للجَلَد العسكريّ وانخرطت في البكاء. لم أبك اشتياقاً بل من الامتنان لأنهما جاءا إلى المطار. انتشلاني من وحشتي ومن وجع الابتعاد عن الحب الملتبس الذي تركته هناك بدون كلمة تبلّ الريق.

فتح أبي قنينة نبيذ إيطاليّ فوّار والتممنا حول مائدة الطعام ومعنا أمّي. كانت تتمسّح بي ولا تصدّق أنني عدت سالمة. تسكب الطعام في صحني وتدخّن ولا تأكل. تتحاشى النظر إلى أبي ولا ترفع عينيها عنّي. اجتمعنا في البيت مثلما كنّا نجلس قبل أن ينفصلا. الآن بدأ العيد الذي فاتني في بغداد.

جاء بابا من أجلي. من أجلي ومن أجل أخبار البلد الذي يحبّ. يتلهف لسماعها منّي، مباشرة من فمي، وكأنني أعرف أكثر مما تنشره الصحف. سألني عن أصدقائه القدامى. هل منهم من ما زال يقرأ الأخبار في التلفزيون؟ أبي لا يدرك أن زلزالاً حدث هناك. يتكلّم عن العراق وكأنّه تركه محفوظاً في علبة «سرمهر». كيف يمكن للمرء أن يشعر بكل هذا الحنين إلى وطن قسا عليه وحطّم أسنانه؟

حكيت له عن مبانٍ حكوميّة تحولت إلى رماد وخرائب سود. نساء فقيرات من أرامل الحروب أخذن أطفالهن وذهبن للسكن في مؤسسات وزارة الدفاع. معسكرات أقفرت من العسكريين. قصور وزراء صارت مقرات لأحزاب معارضة. أجهزة أمنيّة انهارت وهرب مخبروها إلى القرى التي جاؤوا منها. حكيت له عن جيشنا الذي تسلّم المدن وبدأ يبني كل شيء من الصفر... من الصفر.

وكان أبي يشرب حزيناً وهو صامت. أتى على القنينة وزاد عليها كأسين من الويسكي. ولما جفّ ريقي من الكلام وتعب هو من الشراب وقف ولوّح بسبابته، الحركة النجفية في قراءة الشعر، وأعلن بنبرته الإذاعيّة:

- الويل الويل من شعب العراق...

ثم تهاوى على الكنبة ونام.

في الصباح التالي ودّعناه عائداً إلى أريزونا وأوصله جايزن إلى المطار. بقيت مع أمّي، تطاردني بعينيها الناطقتين لتسمع أصل الكلام. لا تشتري بفلس كل ما قلته في الليلة الفائتة.

- إسمعي زينة، كل ما رويته، البارحة، نعرفه من التلفزيون. ادخلي في الموضوع.

- حسناً، جدّتي غاضبة كثيراً... لم تتقبّل عودتي بهذا الشكل.

- جدّتك لا تتقبّل أي شيء.

- تعتقد أنك فشلت في تربيتي.

- هي هكذا، لا يعجبها العجب.

- هل تصدقين أنها رسمت خطّة مع طاووس وابنها حيدر لغسل دماغي؟

- طاووس؟ خلف الله عليها وعلى أولادها، لولاهم لماتت من العزلة.

- هل صحيح أنها أرضعتني وأنا طفلة؟

- أرضعتك شهرين لمّا أصابتني حمّى التيفو. خفت عليك من حليبي. أنت وأبناؤها صرتم إخوة.

وضعت أمّي النقاط على عصب قضيتي. بهذه البساطة التقريرية. مكان الولادة بغداد. لون الشعر أسود. العلامات الفارقة: شقيق في ديترويت وستة إخوة في مدينة الصدر.

XXXII

لم يتغير الدرج الحجري المكشوف. أصعده بخفّة وكأن ساقيّ ساقا بنت في الثانية عشرة، والريح تضرب وجهي. تتقدّمني الراهبة ماري نويل، صامتة، مثل الناذرين أن يصوموا عن الكلام. أسمع خشخشة مسبحتها الطويلة المعلقة في حزامها، مع ضبة المفاتيح، تنظّم إيقاع أقدامنا. كم تلميذة ارتقت هذا الدرج، من قبل، إلى الكنيسة الصغيرة المعتمة لكي تطلب نجاحاً في امتحان؟ ما أحلى الحياة حين تكون الامتحانات معضلتها الكبرى. بعد ذلك تتعقّد الأمور.

توقفت على المنصّة المربعة العالية المصبوبة من الكونكريت، قبل باب الكنيسة. الحاجز أمامي يصل إلى نصف البدن. تركت عينيّ تتمتعان بالمنظر الذي أُشرف عليه. ألغيت عشرين سنة وعببت الهواء المنعش. رأيت سياج المدرسة العالي، تحتي، وشبابيك غرف الراهبات إلى اليمين. الشمس جميلة، لكنّ الخراب في وسط بغداد يثير الأسى. عرفت الفيلم من المشهد الأول: «كينغ كونغ في المدينة».

على هذه المنصة، كنا نتدافع للوقوف والفرجة على العالم الحقيقي. ذاك الذي يجاهد الآباء أن يحولوا بيننا وبينه. يريدون حماية بناتهم من رذاذ التجارب والتأوهات. لكننا كنا نغافل المراقبات ونتمهل في تلك البقعة.

نطلّ على كل المنطقة المحيطة بمدرسة راهبات التقدمة في الباب الشرقي. صار اسمها، بعد التأميم، «ثانويّة العقيدة».

الزحام النابض لساحة التحرير، رموز تمثال الحرية، أبّهة وزارة التخطيط ذاك الصوب، فتنة دجلة وهو يجري بلونه الطيني وأبلامه وشباك صيّاديه، وكل أولئك الرجال الذين يسيرون مسرعين، أو يتمشّون على مهل وليس بيننا وبينهم سوى صرخة مشغولة بنزق. تصيح إحدى البنات فتستدير رؤوسهم إلى الصوت الأنثويّ وفي العيون تحفز لذيذ.

لا أحب عبارة «أين راحت تلك الأيام؟». لكن روحي نطقت بها وأنا واقفة في هذه البقعة.

كل شيء تغير في بغداد إلا مصاطب الكنيسة. حتى رائحة البخور لم تتزحزح من مكانها. كأن العود الذي أحرقته بيدي قبل خمسة عشر عاماً ما زال متقداً، أم أنه العود الذي أشعلته أمي قبل خمسة وثلاثين عاماً؟

الراهبة تخلط بيني وبينها. تسميني «بتول». بتول انتظريني هنا. بتول اركعي هناك. حاذري العتبة الناتئة يا بتول. ماذا ينفع أن أصحح لها بأنّ بتول هي والدتي وأنا ابنتها زينة؟ لا تقرأ ماسور ماري نويل سوى ما هو مكتوب في رأسها. لم يكن اسمي وارداً في قائمتها لأن راهبتي كانت تدعى ميلينا. وميلينا وقعت في حب رجل وهجرت الدير. كانت تزور قريتها في الشمال عندما اكتشفت أن الخبّاز الجديد أكثر جاذبيّة من يسوع. لحقت به وتزوجته تاركة الرداء الأسود الطويل لمن لم تشمّ عرق الرجال.

أركع أمام تمثال العذراء وبجواري وَجَلي. أراها لا تكبر في السن، ولا يصيب البلى ثوبها الرخاميّ الأبيض. تتموّج طيّاته ويتطاير الحزام السماويّ

من عبث ريح غير مرئية. أعجب لنفسي وأنا أتلو صلواتي بالعربية بدون سهو ولا نسيان. أُفكّر أن الصلاة مثل ركوب الدراجة أو مثل السباحة. نتركها لسنين ثم نسترجع حركاتها حالما نغطس في الماء.

وماسور ماري نويل ترمقني وهي تكبت ضحكتها. تهمس، كي لا تقلق دعة القديسين المحوّمين في المكان:

- هل تذكرين الأيادي الضارعة يا بتول؟

- أي أياد...؟

- كتاب «الأيادي الضارعة» الذي يحوي نصوص الأدعية والابتهالات.

كيف نسيت؟ إنها قصّتي لا قصّة بتول. أم أن الماسور تلعب على ذاكرتينا؟

سحبتني الراهبة الرئيسة من ردني إلى غرفتها، وسلمتني نسخة من «الأيادي الضارعة». قالت: إنه كتاب جديد وصلها من بيروت.

- قيل لي إنك شاطرة في العربي والإلقاء، لهذا ستقرئين في الصلاة الصباحية، كلّ يوم، مقطعاً من هذا الكتاب.

توّجني الكتاب أميرة صغيرة لكنيسة الصباح. تخشع التلميذات وتماثيل القديسين، وتصمت قطرات المطر وصفارات سيارات الإسعاف، وتتجمد شعلات الشموع وهي تصغي لإلقائي. «يا ربي وحبيبي. أمس اشتقت إليك فدعوتك في وحدتي ورجوتك أن تتلطف وتستجيب. ولم تخذلني يا واسع الرحمة، بل مددت يدك وأخذت بيدي في ذلك الدهليز المظلم الذي غمرته، فجأة، أنوارك».

أتقدم في الفصول وتكبر، يوماً بعد يوم، سطوتي على التلميذات. نفوذ

روحيّ لم أكن أفقه ميكانيكه وأنا في تلك السن الهشّة. ولو سئلت عنه اليوم لفكّكت كل براغي المطارنة والحاخامات وآيات الله، وكلّ الذين يمسكون بالبشر من أضعف نقطة في أرواحهم، الخوف من القدر والموت. لا يعود في مقدور أبناء الأوادم الخائفين سوى الطاعة وتقبيل الأيدي لئلا يُطردوا من الجنّة.

مضى الشتاء وحلّ الربيع وأنا أتمتع بمنزلتي الروحية المتعاظمة في المدرسة. تأتيني الطالبات لكي أمسح على جباههن بكفّي ذات البركة قبل كلّ امتحان. تطلب مني إحداهنّ الإذن بإدخال مسجّل صغير إلى الكنيسة لكي تسجّل قراءاتي وتحفظها. بدأت كاسيتاتي تتنقل في حقائب تلميذات مدرستنا ووصلت إلى مدارس راهبات الورديّة والقديس يوسف ونجمة الصبح. قرأت الكتاب كلّه وأوشك عرشي على الاهتزاز.

لما فرغت من تلاوة كل الصفحات تجاهلت إخبار الأمّ المديرة. بدأت أؤلّف، كل مساء، نصوصاً تشابه في أسلوبها «الأيادي الضارعة» لكي أقرأها في صلاة الصباح. ليس من السهل التنازل عن السلطة. اليوم أفهم هذا الدرس الذي فاتتني معانيه آنذاك. جئنا جيشاً جرّاراً لكي نقلب كرسيّ رجل واحد. أفهم الدرس وأكتشف السعادة التي تشعر بها جدّتي رحمة وهي تأمر وتنهى القدّيسات والقدّيسين. ترفع من مراتبهم عندما يلبّون ضراعتها، وتشطبهم من القائمة حين يتأخرون. لم يبق طوع يديها غير قدّيسيها الطيّبين بعد أن هاجرنا كلّنا وخرجنا من تحت إبطها. أخبرتني أنها بحثت في كتيبات الصلوات عن اسم القدّيس شفيع المهاجرين فلم تجد ضالّتها.

- هل تريدين أن توصيه بنا...

- بل أن أشكوَكم إليه وأتوسّل أن يرفع عنكم عباءته ويترككم مكشوفين للسماوات الغريبة، لعلّ عقولكم تعود إلى رؤوسكم، تعودون إليّ.

في المساء، أنقر «الأيادي الضارعة» على الكومبيوتر. أبحث عنه في «غوغل». هل كان ذلك الكتاب حقيقة أم من أوهام الطفولة؟ يأتيني الجواب من موقع الموسوعة المسيحيّة العربيّة الإلكترونيّة: إنه من تأليف ميشيل كواست، تعريب الأب هكتور الدويهي. منشورات دار المشرق، لبنان.

تناول أبي الكتاب، ذات مساء، من فوق وسادتي. قلب صفحاته وابتسم بغموض. كنت أنتظر منه تعليقاً على ما فيه من نصوص أخّاذة لكنّه اعترض على العنوان. قال إن جمع يد هو أيدٍ، أما الأيادي فتعني الأفضال.

أليس هذا فيلم «عرب وين... طنبورة وين؟».

XXXIII

رصاصتان في الرأس وأربع في الصدر. يعني رصاصة لكل ثلاث سنوات عاشها ذلك الجنديّ الذي ما زال ينتظر أن ينموَ الشعر على صدره.

ربطت ديبورا شريطاً أصفر حول جذع النخلة، قرب المصطبة التي نجلس عليها للتدخين. يبست نباتات كثيرة في جنائن المنطقة الخضراء لكن النخيل خُلق لكي يعيش. وجاء كريس، طبّاخنا الذي لا يعرف من المهنة سوى قلي صدور الدجاج، وجلس على الحشيش اليابس محتضناً الغيتار. بدأ يعزف أولاً ثم راح يغني بصوت عميق:

- «اربطي شريطاً أصفر حول شجرة البلوط العتيقة».

منذ أسبوعين ونحن ننتظر خبراً عن رفاقنا الثلاثة المخطوفين غرب المحموديّة. نصبوا لهم كميناً هناك. قُتل في الهجوم أربعة جنود ومعهم مترجم عراقيّ. لم أكن أعرف أحداً من الضحايا سوى المترجم يونس، مدرّس الإنكليزية السابق في مدرسة الفراهيدي. يونس مجنون سلمى. هكذا كان لقبه بيننا. يعشق الممثلة سلمى حايك ويضع صورة لها، مكشوفة الصدر، في محفظته.

لم يكن شاهدها في أي من أفلامها. الفضائيات كانت ممنوعة في العراق، والسينمات لا تعرض سوى الأفلام الهنديّة.

عندما يفتح يونس المحفظة، في فسح التدخين، ويغرق فيها، نعرف جميعاً أنه يلتهم صدر سلمى بعينيه.

- أين يونس؟

يصيح أحدنا. ويردّ عليه آخر:

- إنه عالق في «الصدر سيتي».

تتعالى قهقهات الجنود. يردّ عليهم بشتائم مترجمة من العربية الدارجة إلى الإنكليزية. شتائم فكاهية لن نسمعها بعد مقتل يونس. لن نسمع توسّلاته بأن نطلب له فيلماً من أفلام محبوبته، شرط أن يصل ببريد الجيش، لأن «السرسريّة يسرقون البريد العادي».

رصدت قيادتنا مئتي ألف دولار جائزة لمن يأتينا بمعلومات عن مكان المخطوفين. كان بينهم جنديّ شاب أعرفه من مشيغان اسمه بايرن، لم يبلغ العشرين بعد. سيطرت حالة من السخط في المعسكر. خرج أربعة آلاف عسكري من جماعتنا ومعهم ألفا شرطي عراقيّ، للبحث عن المفقودين في مثلث الموت. منطقة بساتين ونخيل تقع بين اليوسفيّة والمحموديّة واللطيفيّة. لا تبعد أكثر من نصف ساعة إلى الجنوب من بغداد.

بعد أيام عثرت الشرطة العراقيّة على جثّة رجل يرتدي بزّة عسكريّة أميركيّة وله وشم على ذراعه اليمنى. كانت الجثّة منتفخة، تطفو منذ يومين على الأقل، بين أعشاب الفرات. أصدرت اللفتنانت كولونيل جوسلين أبرلي، المتحدثة باسم قيادتنا في بغداد، بياناً جاء فيه أن الجثة هي لجوزيف أنزاك جونيور، أحد الثلاثة المفقودين. كانت تحمل رصاصتين في الرأس وأربعاً في الصدر. وقال الجنرال بترايوس لمجلة آرمي تايمز إنه يعرف

المسؤول عن عملية الخطف. إنّه «شريك للقاعدة».

كريس يغني بأفضل مما يطبخ:

«أنا عائد إلى البيت وقد أنهيت محكوميّتي
آن لي أن أعرف ما هو لي وما ليس لي
فإذا تسلّمتِ رسالة أقول لكِ فيها
إن سراحي سيُطلق قريباً
عليكِ أن تعرفي ما يجب القيام به
إذا كنت ما زلت تريدينني
اربطي شريطاً أصفر حول شجرة البلوط العتيقة
ثلاث سنوات مرّت
فهل ما زلت تريدينني؟».

ربطت ديبورا شريطاً أصفر حول جذع النخلة، بعد أن قرأت في جريدة أميركيّة أن الطلاب من رفاق الجنديين المفقودين ربطوا شرائط صفراً حول الأشجار المزروعة على الطرقات المؤدية إلى مدرستيهما. لفتت الشرائط أنظار السكّان في واترفورد بولاية مشيغان وفي لورنس بولاية ماساشوسيتس.

لم أفهم المغزى للوهلة الأولى. سألتني ديبورا:

- ألم تسمعي الأغنيّة من قبل؟

- تبدو لي أليفة. اللحن ليس غريباً عليّ.

- فتّشي عنها على الأنترنت.

ذهبنا للنوم وحان وقت الإيميلات الليليّة. بحثت عن أغنية الشريط الأصفر. استمعت إلى نسختها الأصليّة. وجدتها حزينة ولكنها تصلح لترميم الآمال المعطوبة. عرفت أنها أُنشودة شعبيّة كتب كلماتها أرفين ليفن وإل. راسل براون وغنّاها داون وطوني أُورلاندو. كان ذلك في نيسان من عام ١٩٧٣، قبل مولدي.

وصلت «الشريط الأصفر» إلى المرتبة الأولى في سباق الأغاني في بريطانيا والولايات المتحدة. ظلّت في ذلك الموقع لأربعة أسابيع متتالية. بيع منها ثلاثة ملايين أسطوانة. ولم تكن فقاعة. عادت الأغنية إلى الإذاعات بعد ذلك بثماني سنوات، أثناء أزمة خطف الرهائن الأميركيين في طهران. أحبّها المستمعون لأنها تستعيد تقليداً كان متّبعاً في القرن التاسع عشر، يوم كانت حبيبات مقاتلي الفرسان الأميركيين يربطنَ جدائلهن بشرائط صفر، للدلالة على انتظار الغائب.الأصفر هو لون سلاح الفرسان.

فيما بعد، ألهمت الأغنيّة جون واين في فيلمه الذي يحمل الاسم نفسه. وصار رمز الشريط الأصفر شائعاً للتذكير بالأحبّة الغائبين، سواء في السجون أو في حرب فيتنام. الآن في حرب العراق، إنها إشارة لهم بأنهم سيجدون الأحضان مفتوحة عند العودة.

أنقر ثانية على الأنترنت، وماذا أكتشف؟ لم تمرّ الأغنية مرور الكرام. كان بيت هاميل، المعلق في نيويورك بوست، قد كتب في خريف عام ١٩٧١ عموداً في صحيفته بعنوان «الذهاب إلى البيت». جاء في المقال أن طالباً في الثانويّة عقد صداقة مع سجين سابق. كانا يتقاسمان المقعد في الباص. الولد ذاهب في رحلة مدرسيّة إلى شواطئ فورت لودرديل،

والسجين المطلق السراح عائد إلى البيت. كان، طوال الطريق، يبحث عن منديل أصفر مربوط على جذع شجرة بلوط معمّرة.

أقرّ هاميل بأنه سمع هذه الحكاية منقولة من التراث الشفاهي. وبعد تسعة أشهر، أي في صيف ١٩٧٢، أعادت مجلة ريدرز دايجست نشر، مقال هاميل. في تلك الفترة نقل تلفزيون أي .بي. سي القصة إلى الشاشة وأعطي دور السجين العائد إلى الممثل جيمس إيرل جونز. كل ذلك قبل أن يسجل ليفين وبراون حقوق كلمات الأغنيّة باسميهما.

لما نجحت الأغنيّة، أقام الصحافي دعوى عليهما باعتباره صاحب الفكرة. طالب بحقّه في الملايين التي حصل عليها المؤلفان مقابل هذه الأسطر:

«إذا لم أجد الشريط حول الشجرة العتيقة
سأبقى في الباص وأنسى ما كان بيننا
وسيكون الذنب ذنبي إن لم أجد الشريط
فيا سائق الباص
أرجوك انظر معي
لأنني لا أجرؤ على رؤية ما يمكن أن يطالعني
أنا ما زلت في السجن
وحبيبتي تحمل المفتاح
وأحتاج شريطاً أصفر بسيطاً
لكي أخرج إلى الحريّة».

نقرة ثالثة تظهر لي إحصائية طريفة: «خلال سنوات انتشارها، أذاعت العشرات من محطات الراديو تلك الأغنيّة بصورة متواصلة، حتى زاد عدد مرّات إذاعتها على الثلاثة ملايين. أي ما مجموعه سبع عشرة سنة متواصلة من البثّ على الهواء».

لكنّ النقرة الرابعة هي الأهم. تسلّل إلى مشتركي الأنترنت فايروس يعرض فيلماً لأغنية من أداء فريق أسيلم ستريت سبانكرز. إنهم مجموعة من المغنّين الأميركيين السود الذين قدّموا محاكاة هجائيّة لأغنية الشريط الأصفر. غيّروا مطلعها إلى «اربط شريطاً ممغنطاً إلى سيارتك الرياضيّة». كانت هذه طريقتهم في السخرية من الشرائط الصفراء التي انتشرت موضة إلصاقها على السيارات، تضامناً مع الجنود الأميركيين المحاربين في العراق.

أبحث عن الشريط على يوتيوب وأستمع إلى السبانكرز. أتمايل مع إيقاع أجسادهم وأترك العنان لشجني. أرى سلسلة طويلة من جثث جنودنا تفترش الطريق من هانوي إلى بغداد. أظنّ أن تجربتي العراقية بدأت تأخذ طعم الخلّ.

XXXIV

إشتقت له. لابدّ أن أراه. لم يعد تتبّع أخباره من طاووس يكفيني ولا إيميلاته تداوي صبري.

أكتب له وأنا في الخضراء. أتظاهر بأنني أبعث رسالتي من ديترويت. يكتب لي من مقهى للأنترنت في شارع فلسطين. أتخيّل أنه في مقرّ من مقرّات جيش المهدي. ترهقني رسائلنا أكثر مما تناغيني. لا هو يصدّق أنني في ديترويت ولا أنا أعرف من أين يكتب.

متى شمّ مهيمن رائحة الخضراء وعرف أنني في الجانب الآخر من الجحيم؟ أم أنه كان يفهم التمثيليّة وأدى دوره فيها أداء متوسّطاً، بدون تراخ ولا إبداع؟ لم يكن لديه، من ناحيته، ما يخفيه عنّي. الميليشيا مثلها مثلُ الجيوش والأحزاب وفرق الجيش الشعبي، سابقاً. العقيدة مثل الإيديولوجيا، والسيّد مثل الرفيق المسؤول. كلّ يتلطّى بجماعة.

أراه أشطر منّي. استوعب تقلّبات الكائن البشري وفهمها مرّة واحدة وإلى الأبد. من الحرباء فينا؟ أمسك أخي المُفترض بحبّة منع الدهشة ورماها في جوفه وشرب وراءها كأس ماء واستراح. لماذا عليه أن يخجل من أنه كان شيوعيّاً وصار إسلاميّاً؟ أو من حقيقة أنّه كان أسيراً في إيران؟ أو من أن شقيقه الأصغر عمل مع مخابرات النظام السابق؟

- لا نظيف في العراق اليوم... صدّقيني. الفرق الوحيد هو في مقدار الروث الذي تجرّعه كل واحد منّا.

- غلط. هناك حزب جدّتي رحمة وأمثالها.

أذهب إلى أعلى الشاشة وأنقر على «ديليت». لا أريد أن أحتفظ برسالته في الملف. إنها توجعني لأنها من نوع رسائل التعزية والمواساة. كأنّه يقول لي: «لا تخجلي يا أختي من بزّة الجنديّة الأميركيّة... لكل منّا بزّته التعيسة التي يرتديها تحت جلده». لماذا يريدني أن أخجل مما أقوم به؟ تعال يا سيّد مهيمن وقف أمامي لنتحاسب، الآن في هذه اللحظة، وسأقولها لك وعيناي في عينيك: «لست آسفة».

جئنا لنقوم بعمل عظيم، وهم أفسدوا كل شيء. تقيأتم على سلّة الورد التي قدّمناها لكم. ليس عندي كلام آخر. سأبقى مترجمة الاحتلال ولن أكون أختك. لا بالحليب ولا بالدم. الدم الذي حفر خنادق بيننا. جعلني أقول «نحن وأنتم». ليس في قدرتي سوى أن أكون أميركيّة. عراقيّتي تخلّت عنّي. سقطت من جيبي، وتدحرجت بعيداً مثل فلس منقرض.

حاولت أن أكون الاثنتين فلم أفلح. خلعت الخاكي ولبست عباءة ونزلت أتسوّق في الكرّادة. اشتريت ليفة ونعلاً بلاستيكيّاً وعلكة تباع في أكياس. تحدّثت مع البائع بلهجته. تشاقيت معه. نظر لي وابتسم مشجّعاً. كأنّني مستشرقة.

بشهامة الأخ الكبير يكتب لي مهيمن لكي يبرئني من رزايا هذه الحرب. «لست مسؤولة عن الخراب والأكاذيب. زينة أنت مثلنا. ضحيّة خدعة أكبر منك».

القادر منهم والفالصو. وكانت العذراء تطلّ من صورتها العجائبيّة التي لا تنطفئ شمعتها، تراقب ولا تتدخّل.

إستحلفتها أن تردد شتيمة جدّتي. تنطق طاووس الشتيمة مثل طفل يردّد ما لا يفهم. تعيدها وهي تداري فمها بيدها:

- قالت أسْحَتها والله، هل الجمّاقة بنت الزقاقات.

هذه «خلوقة» من كعب الدست. قفزت المفردة المنسيّة إلى بالي. هكذا يسمّي الموصليّون الشتيمة. يقولون: «خيلقني وخيلقتونو». يعني شتمني وشتمته. وقد خيلقتني جدّتي رحمة وتوعّدتني بالطرد من بيتها.

فكّرت أن أبعث لها طبيباً من المعسكر. لكنّي خفت أن تخيلقه وتسحته. تطرده وتلمّ عليه أهل المروّة. تموت ولا تدع عسكريّاً أميركيّاً يكشف عليها. أما أنا فيمكنها أن تطردني وأن تشتمني، وأبقى واقفة أتلقى الخلوقات، متدثّرة بحبّها لي. أتلقى غضبها وأمتصّه رغماً عنها. ماذا تستطيع أن تفعل؟

حين طرقت الباب فتح لي حيدر وباس رأسي. فيه شبه من مهيمن. تنقصه عشر سنوات ليصبح هو. أشار إلى الغرفة الداخليّة. فتحت الباب. وجدت طاووس متربّعة فوق عباءتها على الأرض. تتمتم آيات من القرآن قرب السرير، والعذراء تصغي.

عندما رأتني هبّت مستبشرة وهي تصيح:

- جتّي زينة!

ظلّت جدّتي هامدة في سريرها، مغمضة العينين، بلا نأمة. شجّعني سكوتها فخلعت معطفي وحذائي واندسست تحت غطائها. احتضنتها من

الوراء. حاولت أن تخلّص نفسها منّي لكن عافيتها خذلتها. بقينا على تلك الحالة وطاووس تبكي بصمت وتشفط مخاطها بصوت مسموع، بينما وقف حيدر في باب الغرفة يشعل سيكارة من سيكارة.

متى جاء مهيمن؟

لم أنتبه لدخوله. ولعلّ غفوة كانت قد أخذتني بسبب الدفء والعتمة وإيقاعات نشيج طاووس. شممت رائحة عرق وفتحت عينيّ لأرى القامة النحيلة تنحني فوقي مثل قوس يتهيأ لإطلاق النشّاب. هل كان ينوي تقبيلي أم خنقي؟

ما كان أغرب نظرته!

لم يسأل كيف جئت، ولا أين كنت، ولا مع من. الوقت لا يسمح بالأسئلة. وأنا لم أعد خائفة. أجمع يديّ وأمدّهما نحو من يريد أن يخطفني. أستسلم لمن يريد أن يضع رصاصة في رأسي أو يفجّر عبوة ناسفة في طريقي. ماذا يتغيّر؟ رقم إضافيّ في الإحصائية اليومية. التعب نال منّي وامتلأت مفكّرتي بأسماء رفاقي القتلى. ليس هذا هو طعم الحياة. لم يعد في طيّات لساني غير المرارة ولا فوح سوى الشجن.

قررت أن أبقى معهم تلك الليلة. خرجت إلى الحديقة، مع الغروب، وقطفت برتقالات عصرتها لجدّتي. استحلفتها، برحمة جدّي أن تشرب القدح من يدي. ثم قامت طاووس لتعدّ لنا عشاء. راهنتني بأن بيبي لن تذوق منه لقمة.

إنقطعت الكهرباء. تبعني مهيمن إلى الحديقة الخلفيّة الصغيرة. جلسنا على الحديد المشبّك للأرجوحة الصدئة العرجاء ولم نتكلّم. أردت أن

أسأله عن المعارك في مدينة الصدر لكني عدلت. كنت أرتعب من خوفي عليه. أتابع أخبار ملاحقة جنودنا لجيش المهدي وأصلّي له. العراقي الذي شطر كياني شطرين.

- خفت عليك كثيراً في الأسابيع الأخيرة...

- لم تقصّروا. حصدتم الأخضر بسعر اليابس وأوصلتم الدماء للرُكَب.

خاطبني باعتباري البنتاغون، لا زينة «أختي العزيزة». وحزّ ذلك في نفسي.

- إسمع، أنا لن أبقى هنا طويلاً. سينتهي عقدي بعد شهرين...

- بل يجب أن تبقي حتى النهاية. ألم تقولي إنّك تحبين السينما؟

- ليس وقت مزاح.

- لن تهربي قبل أن تشهدي فيلم خروجكم من هذا البلد.

- مهيمن، لا أحبّ هذا الأسلوب.

لم يلق بالاً لاعتراضي. بدأ يسرد عليّ مشاهد أعرفها. فيتناميون متعاملون مع الجيش الأميركي يتعلّقون بعجلات طائرات الهليوكوبتر. الطائرات تحلّق مبتعدة بالجنود وموظفي السفارة. طارت من دونهم. تركتهم لبئس المصير.

لم يعد يناديني «أختي العزيزة». اندلق حليب طاووس على الوحل. جاءت الحرب وقعدت بيننا. انتهت المناظر والمقدّمات وبدأ الفيلم الحقيقي. يسألني وأنا مشيحة بوجهي عنه:

ـ هل أعددتم ما يكفي من طائرات لنقل كل العملاء؟

ـ أرجوك. أنت تؤذيني.

ـ لا بأس. قليل من الأذى لا يُميت. هل تعرفين طالب شنّون؟ حسن عبدالأمير؟ مظفّر الشطري؟ وقيس وهاتف ورعد وعبد الحسين الندّاف؟ هؤلاء أصدقائي. ماتوا في القصف.

مهيمن الذي ضحك عليّ بإيميلاته المتسامحة جاء ليؤذيني. وليس من عادتي السكوت. لكن ردّي غاص في حنجرتي. هل أسأله عن بايرن وجيسيكا ومايكل والميجر لايتلي؟ أصدقائي الذين مزّقتهم الهاونات والألغام؟

يقرأ مهيمن صوت وجعي. يقرؤني. لا يعرف الرحمة.

ـ لماذا جئتم؟

ـ خلصناكم من صدّام.

كأنني مذيعة في «فوكس نيوز». عبارتي تقليديّة. ستشطبها المؤلفة حتماً.

يقترح مهيمن فكرة أكثر ابتكاراً:

ـ طردتم كينغ كونغ من المدينة وقبضتم ثمنه العراق كلّه...

XXXV

لم أجلس في عزائها.

فاتني عزاء جدّتي رحمة وأنا في الخضراء. الجو ملبّد في الخارج. المدينة ملغومة. ذهابي إلى بيتها ومخالطة المعزّين مخالفة لا تغتفر للتعليمات ولشروط السلامة. ركّزت جهدي على إقناع النقيب دونوفان بأن أذهب الى مقبرة الكلدان. سأتابع مراسم الدفن من بعيد. رفض لأن المقابر الجديدة تقع في ضاحية بعيدة.

لعبت على عواطفه، على تعلّقه الشديد بجدّته. هي التي ربّته بعد انفصال أبويه. ماتت منذ أشهر وهو في بغداد. كنّا نسمعه وهو يطلب رقمها في أورنج، بعد عشاء الأحد. مساؤنا يقابل صباحهم. يدير الرقم ويشحب وجهه عندما تتأخر في الرد. يخشى أن تكون ماتت في سريرها.

لكن جدّة النقيب دونوفان ماتت خارج سريرها. على كرسيّ أمام طاولة روليت في كازينو. موقع يبعد عن مدينتها ثلاث ساعات بالسيارة. استقرت الكرة الذهبية الصغيرة في حفرة الرقم الذي راهنت عليه بخمسين دولاراً. أصابتها سكتة قلبية. عندما بلغه الخبر وهو في الخضراء، بعيداً عنها كل تلك الأميال، شاهدناه يبكي ويضحك في آن. راح يعتصر الهاتف الصغير ويكاد يطعجه، مثلما كان كالفن يفعص علب البيرة.

سمح لي دونوفان أن أحضر صلاة الجنّاز في الكنيسة. أجلس في الخلف وأنصرف قبل الناس. كان من رأيه أن أذهب مع عدد من المجنّدين في رتل من ثلاث سيارات همفي مدرعة. رفعت يدي وقاطعته للمرة الأولى:

- نو سير. سامحني. أنت أعطيتني الإذن بالذهاب ولن آخذ معي أحداً. سأذهب بتاكسي من بوابة الخضراء. لن ألفت انتباه أحد. سأرتدي ملابس مدنية عادية...

مرة أخرى تنقلب الأدوار بين الشخصيات. المجندة هي من يخطّط ويأمر، والضابط هو من يؤدي لها التحية. ولغاية اليوم، لم أجد تفسيراً لموافقة دونوفان. غير أن حزني البادي أسبغ عليّ رهبة تتراجع أمامها الرتب العسكرية. لاحظ كل الذين حولي الصدمة التي ضربتني. كانوا يتعاملون معي وكأنني تمثال نادر ومعرّض للكسر من قطع الحقبة الآشورية. قطعة من تلك المنحوتات التي كنّا، أحياناً، نعثر عليها في المداهمات. يأخذها الجنود ويعودون بها إلى المعسكر. يضعونها على مكتب النقيب ويدورون حولها. يتمتمون بعبارات الانبهار. يخشون أن تفتتها نظراتهم قبل إعادتها إلى المتحف.

كنت، بالنسبة لرفاق الوحدة، عصفوراً نادراً. لم تكن لأيّ منهم جدّة عراقية تموت في بغداد، على مسافة نصف ساعة، بسبب الحر والامتثال لحظر التجوّل.

لم تشكُ جدّتي من مرض معروف. «ماتت من الحسرة» حسب نشرة طاووس الإخباريّة. كلامها لا يرقى إليه الشك. كنت أتربّع، مقابلها، على الكاشي الدافئ في المشلح المفضي إلى الحمّام وهي تخضّب بكفّيها شعري بالحنّاء، حين قالت:

- بيبي رحمة راح تموت بحسرتج.

- إنها أقوى منّي ومنّك... لا تتفاولي عليها.

- ألا ترين كم ذبلت من القهر... طولة العمر لها؟

هل يمكن أن تكون طاووس على حق؟

لعلّ جدّتي ماتت بحسرتي. بحسرة عملي وبدلتي العسكريّة.

ماتت بسبب عاري.

عار الحفيدة الأميركيّة.

تقول طاووس إن رحمة كانت تحتفظ بنصف قنينة عرق مستكي من مخلفات جدّي. تلفّها بكيس المخدّة وتحرص عليها. لا تمد يدها إليها إلا في أوقات الشدائد.

- جدّتي تشرب العرق؟!

- لا، بس تقرّب البُطُل من خشمها وتاخذ شمّة طويلة. تبكي من ريحة المرحوم وبعدين ترتاح.

أسألها عن القنينة. تحلف طاووس بالعبّاس أبي فاضل أن جدّتي أخرجتها وكرعتها كلّها يوم رأتني «بهدوم الأميركان وراكبة دبّابة». ظلت الليل كله تولول مثل العدادات. تنعي البنيّة الحبّابة التي أخذها الموت عروساً له.

والله تخبّلت طاووس. عجّزت وفلت لسانها. تقول أي شيء ولا تفهم شيئاً. وجدّتي ماتت لأنها تجاوزت الثمانين. لأن ساعتها قد جاءت. هل ذنبي أن تحين آجال البشر؟

ارتديت السروال الأسود الذي غادرت به ديترويت وبلوزة قطنية. تلفّفت بمعطف مطريّ طويل. أخفيت شعري تحت قمطة. ابتسمت ديبورا حين رأتني. لوّحت لي بيدها. داعبتني بعبارة عربيّة تعلّمتها هنا:

- هلّو حجيّة.

لوّحتُ لها بانكسار ومضيت إلى الخارج وصوتها ورائي:

- Take care.

الساعة تقترب من الثامنة. صباح غائم، بلون العوارض الكونكريتية الشاهقة عند المدخل. أوقفت سيّارة أجرة وطلبت من السائق التوجّه إلى كنيسة القديس يوسف في الكرّادة الشرقيّة. سار في طريقه وغطيت وجهي بكفيّ. تدفقت دموعي مثل مطر بعد احتباس.

صاح السائق:

- الكلاب الأميركان، موهشّكل؟ الله لا يحوج بني آدم لهم.

تصوّر أنني خارجة من مراجعة يائسة في المنطقة الخضراء. لم أجبه. مسحت وجهي وأنفي بطرف غطاء الرأس، مثل النساء الشعبيات. طلبت منه الإسراع في السير لأنني أريد أن ألحق بجنازة. لم يبد عليه التأثر. كأن الناس في بغداد لا يخرجون من بيوتهم إلا لارتياد الجنازات. روتين يوميّ. مثلما يذهب بشر البلاد السعيدة إلى المسارح والسينمات.

فكّرت في السيناريو الدائر هناك. من سيأتي منهم؟ وهل تسير الجنازة في أمان؟ لو كان بيدي لرتّبت لها حماية عسكرية. لكنّ رحمة كانت ستقوم من تابوتها وتبصق علينا. لا يتعيّن على حبّي لها أن يدنّس لحظاتها الأخيرة على وجه الأرض.

طفرت دموعي من جديد. بدأ السائق يصبّ شتائمه القذرة على رأس الاحتلال وعلى «ساعة السودة» التي جاءت بالأميركان إلى البلد.

- أختي لا تبكي. إحمدي ربّك أنك تمشين على رجليك. أمس نقلت إلى الطوارئ امرأتين تملّخت سيقانهما في انفجار تنكة تحت مقعدهما في الباص. واحدة ماتت قبل الوصول إلى المستشفى.

وصلت إلى الكنيسة بعد وصول الجثمان. رأيت سيارة الدفن واقفة أمام البوّابة الحديديّة العالية. دموعي لا تتوقف. أسير في بركة من الوحل الزلق وأقفز إلى الصبّة الإسفلتية. أرتقي الدرجات الصاعدة نحو الباب الرئيسي. الكهرباء مقطوعة. لعل القائمين على المكان استكثروا أن يشغّلوا المولّدة من أجل مراسم سريعة. لا أبناء للعجوز الميتة يدفعون بسخاء. كلّهم في الخارج. الشموع أرخص وأليق بالمناسبة.

أسعفتني العتمة الرطبة. تسللت على رؤوس أصابعي إلى الممر الجانبي. اندسست بين نسوة متشحات بالسواد في الصفين الأماميين. الصفوف الأخرى فارغة. لن أجلس في الخلف. أنا حفيدتها الوحيدة الموجودة هنا. ركّزت نظراتي على الصندوق الخشبي. كان لامعاً ومزيّناً بصليب ذهبيّ. لم أنظر إلى وجوه النسوة. لا مجال للمجاملات.

الجثمان موضوع فوق مسند مغطّى بالقطيفة الزرقاء. تستند على جانبيه ثلاثة أكاليل هزيلة من الأزهار الاصطناعية. عيناي تثقبان الخشب وتنفذان إلى جلد جدّتي. لا أُحبّ تقييد أيدي الموتى. لو كانت طليقة لاحتضنتني.

دار الكاهن العجوز حول الصندوق وهو يهزّ مبخرة ذات سلاسل. انطلقت من فوهتها دفقات دخان أبيض. وصل الضوع سريعاً إليّ.

ـ قدّيشا آلاها... قدّيشا حلثانا... قدّيشا لاما يوثا وتراحم أعليه...

النساء يمخطن في مناديلهن بصوت عال، ويطلقن زفرات حارة تصعد لها صدورهنّ وتهبط. الجذوع تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف على إيقاع التراتيل. الشمّاسان الشابان يتبعان الكاهن ويرددان الصلوات وراءه. أعينهما تدور وتمسح سحنات الحاضرات. تبحث عن وجه فتيّ يستأهل الاستيقاظ المبكر والخروج إلى الشوارع. الشوارع تنصب فخاخاً للأحياء الذين ما زالوا يعاندون أقدارهم.

بكيت وعلا نشيجي. التفتت إليّ سيّدة سمينة مليحة الوجه رغم تقدمها في السن. دار شريط عتيق في رأسي فعرفت فيها زوجة خالي منير. يبدو أن شريطاً مماثلاً دار في رأسها. قرّبت عينيها منّي. تفرّست في وجهي باستغراب. قالت بلهجة موصلية تقلب الراء غيناً:

ـ منو؟ زينة بنت بتول؟ إيمتى جيتي من بغّا؟ تعي شمّيتوكي دبوسكي... ألله يغحما لجدّتكي... كان فغحت كثيغ لو شافتكي هوني.

نسيت النساء جثمان جدّتي المسجى أمام المذبح. قمن من جلستهن على المصطبة الرفيعة وجئن إليّ. يتهامسن باسمي ويتناوبن على احتضاني وتقبيلي. قبلات لزجة كثيرة. كأن شفاههن كاسات هواء تلتصق بلحم خدّيّ وتشفط أحزاني. تنسحب ممطوطة وعصيّة على الاقتلاع. كانت دموعهن تتمسح بوجهي، ودموعي تنتقل إلى خدودهن الذابلة التي تعشق البلل. قبلات أصليّة ذات فرقعات. تطمغ الجلد ولا تلقى في الهواء. ودموع جاهزة للانسكاب أوتوماتيكياً من طول إدمان اللوعة.

بكاء النساء هنا ليس هواية. بل طريقة حياة. رياضة يمارسنها بانتظام، فرادى وجماعات، للحفاظ على لياقتهنّ الروحيّة. تقوّي الدموع عضلة

القلب وتخفّف من ضغط الدم. لها، أحياناً، مفعول يضاهي دوخة البيرة.

أتفرج على القطرات الكبيرة العالقة عند أطراف الأنوف والشفاه. أتذكر أن دمعة حرّى لم تنزل من عينيّ منذ أن غادرت طفولتي. لم تكن في حياتي أحزان بالمعنى العميق للكلمة مثلما لم تكن فيها أفراح كبيرة.

صاح الكاهن ناهراً صف النساء:

- هس... شوية احترام للأموات، رجاء.

سكتت الضجة الصغيرة التي أحدثها ظهوري السحريّ في الكنيسة. واصل الشمّاسان اليافعان تلاوة الصلوات وهما يتطلعان إليّ بفضول وتودّد. وجهي جديد بين نساء الطائفة. حكايات ستصاغ حولي. تكهّنات. نميمة. كلام عن أبي وأمّي. الكلدانيّة التي خالفت ملّتها وتزوجت آشوريّاً. سجنوه وهرب إلى أميركا. كيف جاءت البنت؟

بما يشبه معجزة من المعجزات الفوريّة التي مارستها جدّتي، حوّلتني نظرات النسوة إلى فرد في طائفة. طوائف كثيرة بزغت جهاراً في البلد. أنت هنا أو هناك. وأنا كلب له بيتان. اسألوا طاووس.

تركت رحمة فتّوحي الساعور نائمة في صندوقها الخشبيّ. تسللت خارجة من الكنيسة. من الطائفة. وشجني يحمي رأسي من المطر ويغنّي في أذنيّ.

ليت مهيمن كان هنا لأبكي مثل النساء على صدره.

ليت طاووس تمكنت معه من اجتياز الحواجز التي تحاصر مدينة الصدر.

هل انتهت المذبحة هناك؟

XXXVI

طعم الخلّ!

للحريّة في هذه البلاد طعم الطرشي المنقوع في خلّ كيمياوي. وبوش حزين لأن أربعة آلاف عسكريّ أميركيّ قتلوا في العراق. قال إنّه يفكّر في كلّ واحد منهم بقوّة. مسكين رئيسنا. كيف يكون له أربعة آلاف فكر؟ لن أزيد من محنته العقليّة. لن أكون الضحيّة الواحدة بعد الآلاف الأربعة. لن أموت حيث ولدت وحيث أحببت الرجل المستحيل. النقصان في الحب موت آخر. حياة مضروبة.

اليوم هو الخامس والعشرون من آذار ٢٠٠٨. التاريخ مكتوب على الزاوية العليا للشاشة. انتهى عقدي مع الجيش ولم أُجدّده. عدت من بغداد بهذه الحصيلة. شجن مثل عسل مصفّى. ثقيل ولزج وشفّاف، يفيد في ليالي الأرق ويحرّض على كتابة الشعر. عذاب لا يصلح لتقوية الهمم والمعنويّات، لا يشدّ الوجه ولا يصوبن المفاصل. يقودني الشجن، من يدي إلى غابة الأشجار الرماديّة، ينساني هناك.

قلت لن أحمل معي هدايا. لن أسكب دموعاً. لن أُلقيَ نظرة أخيرة على أي بيت ولا جسر ولا نخلة. حتى ذاكرة جدّتي تثقل على كاهلي. لم نأخذ وقتنا الكافي في الكلام. زرتها اختلاساً وفي غفلة من الحرب. لم

تكمل مهمّتها في تأديبي لكنّ ما نالني منها خلقني امرأة، إنساناً.

كيف نرفع، بالملاقط المعقّمة، ذاكرات الذين عاشوا وشافوا ولا ندعها ترافقهم إلى القبر؟ تُدفن معهم ونخسر مؤونتها. يكون علينا أن نبدأ حبواً ونحرق الأصابع من جديد. نتخبّط ونتيه ونكابر وندّعي المفهوميّة. نلجأ إلى المشعوذين والسحرة ومؤلفي الروايات، لكي يقودونا إلى تاريخ أسلافنا. لا بنوك لدينا للذاكرات ولا محافظ.

يمكنني، في الخيال العلميّ، أن أضع إصبع «اليو. إس. بي» على صدغ جدّتي رحمة وأنقل ذاكرتها إليها. ثم أضع الإصبع نفسها لصق صدغي وأنقر على الإرسال. يتحوّل خزّان تجاربها إلى جمجمتي في ثوان. كيف يسمّون هذا الاختراع بالعربي... مفتاح نقل الذاكرة؟

تعبتُ وتعب منّي الكومبيوتر. ضاق بطباع المؤلفة. أرادت أن تلحق بي إلى ديترويت. تتبعني حتى آخر رمق. تسجّل اندحاري قبل أن تنهض عن طاولة الكتابة. تمطّ ذراعيها وتفرد ظهرها وتصفّق جذلاً. تشرب نخب انتصارها على الحفيدة الأميركيّة.

لم أعد أراها مثلما عرفتها يوم لقائنا. لا بلوزات ملوّنة ولا شعر مقصوص قصّة حديثة. كانت الحكاية تحوّلها، فصلاً بعد فصل، إلى سيدة رجعيّة،أُولد فاشن، تتبنى قيماً عفّى عليها الزمان. هل صحيح أن الزمان يعفّي؟

أكاد أراها في ثياب سيدة من الفلّوجة. أُلاحظ عليها إهاب الموصليّات الصارمات اللواتي يصلحن، قاطبة، للعمل مديرات مدارس أو رئيسات ممرضات. دؤوبات، حريصات، عصيّات على المساومة. تعالي نأخذ ونعط. نتفاهم. نصل إلى حلّ وسط. تنفض رأسها وتواصل المسيرة النضالية.

لن أتحمّل رؤيتها ترفع عباءتها وتهزج مع الهازجين. لن أبقى هنا حتى يحين ذلك اليوم الذي حذّرني منه مهيمن. يوم الهليوكوبترات. دبّرت للمؤلفة لغماً ودفعتها إليه. تخلصت منها لكي لا ترى مقتلي. جلست وحيدة، أمام الشاشة، أختم حكايتي.

لم أذهب إلى البيت مباشرة. نزلت في مطار واشنطن لكي أزور مقبرة آرلنغتن. بحثت عن ريجينا بارنهيرست ولم أجدها أمام الشاهدة الرخاميّة. كان الطقس بارداً حين عثرت على قبر بايرن. لمحتني ليزا فيليبون من بعيد وجاءت لتضع يدها على كتفي. عرفتها من صورتها في الجريدة. عملت لها «سكان» وخزّنتها في ملفّ صوري. الملف الذي يبري رماح الشجن.

كأنّ ليزا تقيم هنا. تصاحب الأولاد الغائبين وتمسح الثلج عن القبور. تخاف على عظام الموتى من الروماتيزم. قبضت أمّهاتهم التعويضات واكتوت أصابعهنّ بالنقود.

ـ هل فقدت أباً أو زوجاً؟

لن تصدّق ليزا أنّني فقدت مؤلفتي ونفسي. تدعوني للانضمام إلى جمعيّتها وأنا عاجزة عن الانتماء حتى إلى اسمي. ذهبت التي تناديني زوينة، زيّون، زُنزُن. هل هناك جمعيّة للحفيدات اللواتي ثكلن جدّاتهن؟

من المطار، اشتريت قدحاً للقهوة. نقشوا عليه تاريخ العشرين من كانون الثاني ٢٠٠٩. آخر يوم لبوش في الحكم. سيذهب وتبقى اللعنة تلوّث مياه النهرين لعصور قادمة. سيقول العراقيّون، في الآتي من الأجيال، لعنة بوش، مثل لعنة الفراعنة. أظنّ أن الأميركيين سيقولونها أيضاً. على «النازا» أن تستكشف كوكباً مضاداً للعنات.

وصلت إلى البيت واغتسلت. لم يسقط غبار الشجن في فوهة البانيو ويذهب مع الصابون. ظلّ عالقاً بي مثل قريني. سيبقى معي يكمل تربيتي. يرافقني عندما أسوق سيّارتي وأتفرج على الناس يأكلون ويشترون ويضحكون ويسمنون. لا يعرف هؤلاء ما جرى لي. ما يجرى لنا في تلك البلاد. أولادنا أرقام صماء تحمل شواهدها وتتقدّم.

لا أظنّ أنني أحتاج مصحّة نفسيّة مثل العائدين من العراق. شجني يداويني ويترفّق بي. لن أنتحر كما فعل مالك الحزين، صديقي اللورد البصراوي. « أكلنا خرا يا زينة». أخذ سيارة وترك الموصل نازلاً إلى الجنوب. قيل إنه أراد أن يعود إلى مدينته ويختفي فيها. وقيل إنه ذهب يسلّم على السيّاب في جيكور. ولم يصل. خرجت سيّارته عن الطريق وصدمت نخلة. روى شهود عيان أن السائق لوّح لهم بيده قبل أن يقود السيارة متجهاً بأقصى سرعة إلى صف النخيل.

شبع مالك من أكل الخراء وذهب يمزمز تمراً.

وضعت بدلتي الخاكيّة في كيس ورميتها في برميل المطبخ. لن أزرع في الخوذة ريحاناً. العطر لا يعيش في الحديد. هكذا كتبت لمهيمن. لم يردّ على الإيميل. البيوت هناك تُقصف ومقاهي الأنترنت لن تتحمل الشظايا.

عدت وحيدة. لم يأت معي حيدر ولا مهيمن. سأُرفّعه إلى مرتبة أمين سرّ الشجن.

لم أجلب معي هدايا ولا تذكارات. لا أحتاج لما يذكّرني بها.

أقول مثل أبي: شُلّت يميني إذا نسيتك يا بغداد.